جامعة الأزهر

حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة

يحررها نخبة من أساتذة الكلية

يشرف على تحريرها

أ. د. علي البدري
عميد الكلية ورئيس قسم البلاغة والنقد

أ. د. عزيز نافع
وكيل الكلية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وإهداء

د. مصطفى محمود يونس
عميد الكلية

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحابته أجمعين .

وبعد ... فهذا هو العدد الأول من مجلة كلية اللغلة العربية بأسيوط ، نقدمه لطلاب العلم ، وعشاق المعرفة ، ونهديه إلى الذين يحبون الأدب ، ويرتادون ميادينه ومجالاته .

لقد ظلت المجلة فكرة حبيسة فى عقول الأساتذة ، وأملا حلوا يداعب خيال الزملاء أعضاء هيئة التدريس ، حتى قيض الله لها هذه السواعد القوية ، فخرجت إلى حيز الوجود تحمل ما قدر لها أن تحمله من فكر ورأى ، وأدب وعلم . وقصيد ومقال .

لست أقول : إن مجلتنا — بهذه الصورة — قد بلغت حد الكمال ، ولكنى أقول — فى صدق وإيمان — : إنها خطوة على الطريق . طريق العمل الهادف ، والسعى الجاد ، وإنها تجربة ... تجربة فى مجال الكلمة الواعية ، والبحث الوافى ، والبيان المفيد . والخطوة مهما اتسعت فلن تبدأ متكاملة ، والتجربة مهما أفادت فلن تبرأ من العيب ، أو تخلو من النقصان .

حسبنا مع ذلك كله أننا بدأنا العمل ، ووضعنا أقدامنا على أول الطريق ، وعزمنا على السير إلى تحقيق الهدف بكل ما نملك من طاقة ، وبكل مالدينا من جهد . سائلين الله فى مسيرتنا عونا كاملا ، وتوفيقا شاملا ، وتأييداً مستمراً ، إنه خير من يسأل ، وأكرم من يجيب .

د . مصطفى محمود يونس

وظيفة الأدب في نظر الإسلام

للدكتور مصطفى يونس
عميد الكلية

منذ عرف الناس معنى الأدب وهم يختلفون فى مفهومه ، ويتنازعون حول مضمونه ، ويخضعون فى توجيهه لعوامل شتى ، تتفق مع الواقع الذى يعيشونه ، أو تتطلع إلى المستقبل الذى ينشدونه ، ويعملون على تحقيقه .

وهم على اختلافهم فى مفهوم الأدب ، وتباينهم فى تحديده تحديداً دقيقاً ، نراهم يتفقون على أن الأدب وظيفة سامية ، يقوم بها الأدباء فى كل عصر ، بقدر ما أتيح لهم من الفرص وعلى حسب ما قدر لهم من ظروف الأداء .

ولست أعرف أنهم يختلفون فى تحديد هذه الوظيفة ، وتوضيح معالمها وأبعادها وإن كانوا يختلفون فى توجيهها الوجهة التى يريدونها حسبما تمليه عليهم ظروف الحياة التى يعيشونها ، وتحتمه ضرورة الإمكانات التى يملكونها .

والذين يؤرخون للأدب منذ عهد بعيد يقولون : إنه كان متصلا بالفكر الدينى اتصالا مباشراً ، يحمل أفكار الكهان ، ويصوغ طقوس العبادة ، وتكتب به التراتيم التى يستخدمها رجال الدين ، لإثارة مشاعر الناس ، ودفعهم إلى الانتظام فى صفوف الناسكين .

تروى كتب التاريخ أن للمصريين القدماء أدبا كان الملوك والكهان يستخدمونه فى عباداتهم ، وحين يجتمعون فى المناسبات مع رعيتهم . وقد

وجدت مجموعة من القصص تحكى حياة الآلهة فى نظرهم ، وتصور عذاب الناس وثوابهم كما شاء لهم خيالهم أن يتصوروه ، وتعلن معتقداتهم فى أن هناك إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وتسجل نماذج للحياة التى يحياها البشر فى قبورهم بعد أن يفارقهم الاحباب ، وتعود إليهم الروح(١) .

والأدب الإغريقى القديم فيه صور من هذه الكتابة تؤكد أن فلاسفة الإغريق وكهانهم كانوا يتخذون من الأدب مطية ذلولا يصلون بها إلى تحقيق مآربهم فى نشر عقائدهم الموروثة ، وتثبيت أفكارهم الدينية التى يريدون تثبيتها وتأكيدها .

وقبل أن ينشر الإسلام لواءه على الجزيرة العربية ، ثم ينطلق منها إلى ربوع العالم ، كان هناك أدب ، وكان للأدب آنذاك وظيفة واضحة ، وكانت تلك الوظيفة تخدم أغراض الجاهلية الاولى ، وتخضع للعوامل الفكرية والعقدية والقبلية التى تؤثر فى الأديب تأثيراً قوياً ، وتوجهه الوجهة التى تتفق مع الحياة التى يعيشها ، والظروف التى تحيط به . فقارىء الأدب الجاهلى يرى نماذج من هذا الأدب ظهرت فيها روح العصر ، وتجلت فيها آثار البيئة ، وانعكست عليها مظاهر الحياة التى كان يعيشها الأديب الجاهلى بكل مشاعره وأحاسيسه وكيانه وسواء فى ذلك تلك النماذج التى كانت تصور عبث العابثين . وانطلاق الماجنين ، أم تلك القصائد التى كانت تسجل حكمة المجربين ، وما جاء فى كلام الرهبان والحكماء من أخبار وقصص ، وحكم وأمثال . إن ذلك كله ينزع عن هذا الاتجاه الذى اقتنع به الأديب الجاهلى ، ورأى أنه يحقق الوظيفة السامية للأدب كما رسمها وحدد أبعادها .

والإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ورسالة السماء التى بعث الله

---

(١) تاريخ مصر القديم — زكريا جاد / ٣٦ .

بها محمدا صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأرض ليطهرها من الرجس ، وينقذها من الضلال ، ويوضح لها الطريق إلى سعادتها وخيرها وصلاحها .

ولم يكن فى وسع الإسلام أن يتجاهل الأدب وقد انحرف كثير منه عن طريق الجادة ، وابتعدت الوفرة الغالبة من الأدباء عن المنهج السوى ، والصراط المستقيم ، وجاء العديد منه فى صور وأشكال لا يرضى عنها الخلق ، ولا يقبلها الذوق الأدبى السليم الذى أراده لعباده المؤمنين .

ولم يكن فى وسع الإسلام أن يفرض قيوداً حديدية يطوق بها أعناق الأدباء ، ويسوقهم سوقاً إلى الخضوع لها خضوعاً تاما دونما اقتناع أو تفكير .

ولكن الإسلام فهم طبيعة الأدب فهماً سليما ، ووجهه الوجهة التى يريدها ويرضاها دون أن يقلل من شأنه ، أو يهون من أمره ، أو يخرجه عن طبيعته وخصائصه . فالأدب فى نظر الإسلام هو الوسيلة الراقية التى يتم بها ترجمة الشعور والوجدان ترجمة واعية فى قوالب لفظية ممتازة .

فالإسلام يعلم أن هناك منافذ كثيرة يمكن أن ينفذ منها الشعور والوجدان إلى عالم الوجود ، ولكن الأدب يملك من وسائل التعبير ما لا تملكه الفنون الأخرى . هو يملك الكلمة القادرة على نقل المشاعر وتصوير الأحاسيس ، وتقديم المعنويات فى صورة محسوسة يراها البصر ، وتسمعها الأذن ، وتحسها اليد ، ويدركها الفؤاد(١) .

قد تملك الموسيقى من الآلات والأوتار ما تستطيع بها أن تحرك المشاعر وأن تثير الوجدان . وقد يملك الرسم من الأشكال والألوان ما يمكنه بواسطتها أن يستثير النفس ، وأن يبهر الأبصار . . وربما يملك التصوير

---

(١) راجع كتاب البلاغة والنقد لمهدى علام / ١٢٠ .

من دقة الأجهزة وقوة الإتقان ما يستطيع به أن يصل إلى تصوير المرئيات في صورة رائعة ، وشكل دقيق . ولكن هذه الفنون جميعها تصبح عاجزة تماما حين تتعرض لتجربة جديدة من شأنها أن تصور المعاني ، وتجسم المشاعر ، وتبرز الأحاسيس في صورة ملموسة واضحة . هنا يبدو دور الكلمة . والكلمة وحدها هي القادرة على نقل المشاعر والأحاسيس في أمانة وصدق ، ومن غير قصور أو إخلال .

لقد فهم الإسلام وظيفة الأدب ، ووجهه منذ اللحظة الأولى لخدمة أغراضه ، وتحقيق أهدافه ، فللأدب في نظر الإسلام وظيفة سامية ، ومهمة كبيرة . وهي — في جوهرها — لا تخرج عن مبادىء الإسلام التي أقرها وارتضاها ، ولا تناهض طبيعة الأدب التي عرفها وألم بها .

إن وظيفة الأدب في الإسلام تتمثل في أن يرقى بالمشاعر ، ويسمو بالوجدان ، ويعمل على تعميق القيم والمبادىء في نفوس المسلمين ، ويدفع بفنونه المختلفة عن الدعوة الإسلامية كيد أعدائها ، وتربص الكائدين لها . ويقدم الإسلام للناس في صورة واضحة ممتازة .

وفي ضوء هذه الوظيفة تعامل الإسلام مع الشعر . فقد كان للشعر دولته الكبرى ونفوذه الواسع . وتأثيره العظيم . ولم يغفل الإسلام هذا الفن الرائع ، ولكنه تعامل معه على هذه الصورة . فأقر الإسلام الشعر ، وجعل منه مايرقى إلى درجة الحكمة ، ويرتفع إلى مستوى التفكير الراقي . يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : إن من الشعر لحكما . وسواء أروى الحديث الشريف بضم الحاء وسكون الكاف . أم بكسر الحاء وفتح الكاف ، فإن ذلك يعطي دلالة واضحة على تقدير الإسلام للشعر ، ووضعه في المكانة التي يرضى عنها ويوافق عليها .

وليس صحيحاً مايقوله بعض الناس : إن الإسلام حارب الشعر ، وتحدى مسيرته ، وتصدى لأصحابه . ينقل الرواة فيما ينقلون عن ابن سلام أنه قال : « فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير(١) » .

إن الذين يحاولون أن يأخذوا من هذا القول دليلا على ضعف الشعر ، وبرهاناً على أن الإسلام حارب الشعر ، وتصدى له ، يخطئون خطأ كبيراً . فابن سلام لم يقل ذلك القول إلا ليعلن للناس أن الشعر العربي قد ضاع منه شيء كثير ، وأن يد الزمن أتت عليه فلم يدون منه شيء(٢) ، وما كان في قصد ابن سلام أن الإسلام حارب الشعر ، أو تصدى لأصحابه ومريديه .

ولعل هذا الفهم الخاطيء هو الذي دعا ابن خلدون إلى أن يقول في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك ، وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي ﷺ ، وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه(٣) » .

الحقيقة أن الشعر لم يتوقف في عهد النبي ﷺ ، ولم يضعف في صدر الإسلام لأن الرسول ﷺ لم يحارب الشعر ، ولم يعترض مسيرته ويتعقب أصحابه ، بل على العكس من ذلك كله ، لقد كان يحث على الشعر ، ويدفع

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام « طبعة دار المعارف » ص ٢٢

(٢) راجع تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص ٣٥

(٣) مقدمة ابن خلدون « طبعة المطبعة البهية » ٤٢٧ .

المجيدين إلى قوله ويحض الشعراء على نظمه ، ويثيبهم عليه . بل لقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يعجب بشعر حسان ، وكان يقول له : « قل وروح القدس معك » . ولقدكان موقفه مع كعب بن زهير دليلا واضحا على إعجابه بالشعر ، وتأثره به وتفاعله معه . فلقد أنشده كعب بن زهير قصيدته اللامية فهش له ، وتهلل بها ، وأثابه عليها حتى خلع بردته عليه إعجاباً بما قال ، ومكافأة لما قدم .

ولقد سار صحابة رسول الله ﷺ على ذلك المنهج وتابعوا هذه الخطى ، فكانوا يألفون الشعر ويرددونه . بل كانوا كثيرا مايتناشدونه فى المسجد ، ويستمعون إليه(١) .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم ، وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً(٢) . وقد روى عنه أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة يقول له : « مر من قبلك يتعلم الشعر ؛ فإنه يدل على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ومعرفة الأنساب(٣) » وقال عنه ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض أمرآ إلا أنشد فيه بيت شعر(٤) » .

إن ذلك كله يؤكد أن الإسلام لم يحارب الشعر ولم يتصد لرجاله ولم يعترض طريق الشعراء المجيدين .

ربما يتوهم كثير من الناس أن القرآن الكريم تعقب الشعراء ، وسفه أحلامهم ، ونفر من وظيفتهم حين قال الله تبارك وتعالى : « والشعراء يتبعهم

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٩٥

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى طبعة دار الكتب ٨/١٩٩ .

(٣) العمدة لابن رشيق ١/١٠ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٤١ .

الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

إن منشأ هذا الوهم أنهم لم يتموا قراءة الآية الكريمة ، ولم يفهموا معناها . لقد جاء فى نهايتها قول الله تبارك وتعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا . وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون(١) » .

معنى ذلك أن هناك صنفين من الشعراء : صنفاً آمن بالله ورسوله ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً ، وانتصر لمبادئه وأهدافه ، ودافع عن الدعوة بالحق والحكمة ، أولئك هم الشعراء الذين يرضى عنهم الله ورسوله ، وينسلكون فى عداد الشعراء الصالحين ، وصنفاً آخر تمرد على الخلق ، وتجرد من الفضيلة وحارب الله ورسوله ، وأولئك هم الشعراء الذين لا يرضى عنهم الله ورسوله ، ولا يندرجون فى صفوف الشعراء الصالحين ، ومن المؤكد أن هذا الصنف من الشعراء هو الذى ورد فى شعرهم قول رسول الله ﷺ « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا »(١) .

ذلك موقف الإسلام من الشعر ، يبارك جيده ، ويستحسن صائبه ، ويؤيد منه ما انطوى على الخلق ، أو اتسم بطابع الفضيلة ، أما الشعر الذى يخدش العرض ، وينتهك الحياء ، ويقف إلى جوار الباطل فإن الإسلام ينكره ويأباه .

وعلى ضوء هذا الموقف الواضح حدد الإسلام وظيفة الشعر ، وسخره لتحقيق أهدافه ، وخدمة مبادئه ، ومناوءة الأعداء الذين اتخذوا من الشعر سلاحا قويا يحاربون به الدعوة الإسلامية ، ويتعرضون لصاحبها صلوات الله

---

(١) سورة الشعراء . الآيات ٢٣٤ — ٢٣٧ .

(٢) العمدة لابن رشيق طبعة أولى جـ١ ص ١٢

وسلامه عليه بالتشهير والتجريح، يقول الدكتور شوقى ضيف(٣) : « معروف أن قريشا حادت الله ورسوله حين بعث : مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينه ، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يعينها من العرب فى جانب ، ويقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ومن هاجروا معه من مكة ، ومن التفوا حوله فى المدينة فى جانب آخر ، وبمجرد أن اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتناقضين يسلون ألسنتهم . ولم تكن مكة فى الجاهلية تعرف الشعر إلا بعض مقطوعات تنسب لورقة بن نوفل وغيره من المتحنفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نبيه ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج فى أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبى سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وأبى عزة الجمحى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى . وقد أخذوا يسددون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين ، وأنصاره من المدينة ، وعز ذلك عليه ، لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم فى العربية ، فقال للأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : « والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء » وانضم إليه كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . يقول عبد الله ابن رواحة مسجلا على مشركى مكة تخلفهم عن القتال ، وتقاعدهم عن الحرب ، وخلفهم الموعد ، وعصيانهم لرسول الله ﷺ ، ويعتز بطاعته لله ، وفدائه للدعوة الإسلامية ، ولقائدها الأعظم بكل ما ملكت يداه(١) :

وعدنا أبا سفيان وعدا فلم نجد لميعاده صدقا وما كان وافيا

---

(١) نهاية الأرب ١٧/١٥٦ .

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا … لأبت ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عقبة وابنه … وعمرا أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله . أف لدينكم … وأمركم السوء الذى كان غاويا
فإنى — وإن عنفتمونى — لقائل … فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره … شهابا لنا فى ظلمة الليل هاديا

ويقف حسان بن ثابت بعد هزيمة المشركين فى غزوة الخندق ، منددا بهزيمتهم المنكرة ، فاضحا مكائدهم الخبيثة ، كاشفا عن تلك القوة الكامنة التى تنصر المسلمين على أعداهم ، وتؤدى بهم إلى الفوز فى معاركهم ، والانتصار فى حروبهم ، فيقول(١) :

وا شك الهموم إلى الإله وما ترى … من معشر متألبين غضاب
أموا بغزوهم الرسول وألبسوا … أهل القرى وبوادى الأعراب
جيش عيينة وابن حرب فيهمو … متخطمين بحلبة الأحزاب
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا … قتل النبى ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا — قادرين — بأيدهم … ردوا بغيظهم على الأعقاب
بهبوب عاصفة تفرق جمعهم … وجنود ربك سيد الأرباب
وكفى الإله المؤمنين قتالهم … وأثابهم فى الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرج كربهم … تنزيل نص مليكنا الوهاب
وأقر عين محمد وصحابه … وأذل كل مكذب مرتاب
مستشعر للكفر دون ثيابه … والكفر ليس بظاهر الأثواب
علق الشقاء بقلبه فأرانه … فى الكفر آخر هذه الأحقاب

ولقد كان ضروريا حين تعرض الشعراء المسلمون لهجاء الكفار ومعارضتهم أن يتجهوا إلى مدح الرسول ﷺ باعتباره حامل لواء الإسلام ،

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١١ .

والقائد الأعلى لصفوف المسلمين ، ولم يكن هجاء المشركين موجها لشخصه الكريم ، وإنما كان موجها إليه باعتباره حاملا لهذه الرسالة العظيمة التى بشر بها ، وأعلنها للناس جميعا .

لقد كانت الدعوة الإسلامية — منذ جهر بها صاحبها صلوات الله وسلامه عليه — بحاجة إلى شعراء مجيدين يتصدون للهجوم المنظم ، وغير المنظم ، من قريش وغير قريش ، على هذه الدعوة الجديدة ، وكان الشعر الذى صاحب الدعوة فى تلك الفترة وفيا باحتياجاتها غاية الوفاء . وكان حسان بن ثابت فى طليعة الشعراء الذين حملوا لواء الدفاع عن هذه الدعوة .

يقول الدكتور زكى مبارك : «كان حسان بن ثابت أكبر شعراء الرسول ويمتاز بالصدق والإخلاص ، وكان يمدح الرسول ﷺ ، ويقارع خصومه على الطرائق الجاهلية وكان الرسول ﷺ أوصاه أن يتعلم الأنساب من أبى بكر ليكون شعره أوجع فى الهجاء . وكذلك استطاع بفضل ما عرف من أنساب قريش أن يهجوهم هجاء موجعا كان النبى ﷺ يراه أشد عليهم من وقع النبل»(١)

وقد كانت المدائح تمثل جانبا كبيراً من شعر حسان ، فديوانه مليء بالمدائح النبوية . غير أن هذه المدائح لم تكن تخلو من هجاء المشركين وكشف عيوبهم ، وبيان مثالبهم . ومن أقوى قصائده فى المدح القصيدة العينية التى يقارع فيها خصوم الدعوة الإسلامية ، ويتخذ من مدح الرسول ﷺ وأهله سندا لمقارعة أولئك الخصوم .

روى أن وفد تميم لما قدموا على النبى ﷺ قالوا : جئنا لنفاخرك ، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، فقام خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، وقام

---

(١) المدائح النبوية فى الأدب العربى للدكتور زكى مبارك ص ٢٩

خطيب الرسول ﷺ ثابت بن قيس فأجاب ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا … منا الملوك وفينا يقسم الربع
وكم قسرنا من الأحيـاء كلهم … عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا … من الشواء إذا لم يؤنس القزع
ألم تر الناس تأتينا سراتهم … من كل أرض هويا ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطا في أرومتنا … للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم … إلا استفادوا وكاد الرأس يقتطع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد … إنا كذلك عند الفخر نرتفع
فمن يقادرنا في ذاك يعرفنا … فيرجع القوم والأخبار تستمع

فقام حسان فقال :(١)

إن الذوائب من فهر وإخوتهم … قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته … تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم … أو حالوا النفع في أشياعهم نفعوا
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم … لا يطبعون ولا يرديهم الطمع
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم … فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها … إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم … وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع … أسد بحلية في أرساغها فدع
إذا نصبنا بقوم لا ندب لهم … كما يدب إلى الوحشية الذرع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم … إذا تفرقت الأهواء والشيع

---

(١) ديوان حسان بن ثابت .

أهدى لهم مدحى قلب يؤازره ... فيما يحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا

إن قصائد كثيرة من هذا النوع كتبها حسان بن ثابت ، وكتبها غيره من الشعراء المسلمين فى مدح رسول الله ﷺ ، وهجاء أعدائه ، وفى مدح صحابة رسول الله ﷺ ، وبيان مكانتهم وبلائهم وصدقهم ، ولم يكن الهدف من وراء ذلك المدح أو ذاك الهجاء ما كان يهدف إليه المدح والهجاء فى العصر الجاهلى ، وإنما كان الهدف الأصيل هو تأمين جانب الدعوة الإسلامية، وتوفير مقومات الأمن والاستقرار لها . فإذا سكتت أصوات الشعراء التى ترتفع لهدم الدعوة الإسلامية والتطاول عليها ، وإذا خرست ألسنة الذين يطلقونها بالشعر لإيذاء النبى ﷺ وأصحابه . هدأت نفوس المؤمنين ، واتجهت إلى التفكير الجاد المثمر لبناء الدولة الاسلامية الجديدة ، والانصراف إلى ما فيه خيرها وصالحها ، لذلك كانت وظيفة الشعر فى هذه المرحلة أن يتصدى لهذه الأصوات المتطاولة فيخرسها أو يسكتها وقد نجح الشعر فى ذلك إلى حد كبير .

ولم يكن حسان وحده ليحمل ذلك العبء الضخم . ولكن كان هناك شعراء آخرون اشتركوا معه فى حمل هذا العبء . فمع عبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك كان سويد بن الصامت الذى كان يلقب بالكامل ، وصرمة ابن أنس ، وأبو صرمة بن قيس ، وخبيب بن عدى بن مالك ، وعمرو بن الجموح والحباب بن المنذر ، وغير أولئك من الشعراء المهاجرين والأنصار الذين انضموا إلى الشعراء الثلاثة البارزين ، فكونوا بذلك جبهة قوية من جبهات الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، والذود عن حماها . فإذا استقر لها الأمر فى فى مكة والمدينة اتجهت إلى بلاد الله الواسعة ، وانطلقت جموع تحمل راية الله وتنشر دينه الحنيف ، وتعلى كلمة الحق فى شتى بقاع الأرض . وكانت الفتوحات الإسلامية الكثيرة . واحتاجت إلى الشعر ليقوم بواجب المراسل

الحربى الذى يغطى أنباء القتال ، ويسجل أحداث المعارك ، ويذيع أخبار الحرب ، ويعلن بشائر النصر . ويؤدى الشعر وظيفته فى هذا المجال بأمانة واقتدار فقد كان كثير من الشعراء فرسانا أبطالا ، اشتركوا فى القتال بأسلحتهم ، وصنعوا النصر بأيديهم ، أو تجرعوا الهزيمة بأنفسهم، أو أصابهم نصب أو مخمصة فى سبيل الله .

يحدثنا أبو على القالى فى كتابه « الأمالى » عن عبد الله بن سمرة الحرشى أنه شهد الفتوح فى بدء الإسلام ، وأنه بارز « أرطبون » الرومى فى معارك الروم سنة خمس عشرة من الهجرة ، وأن عبد الله تمكن من قتل « أرطبون » الرومى ، ولكن بعد أن قطعت يده ، فقال فى ذلك : (١)

ويل أم حار غداة الروع فارقنى ... أهون على به إذ بان فانقطعا
يمنى يدى غدت منى مفارقة ... لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وقائل غاب عن شأنى وقائلة ... هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
ويل امه فارسا أخلف عشيرته ... حامى وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا
يمشى إلى مستجيب مثله بطل ... حتى إذا أمكنا سيفيهما انقطعا
فاشتفه الموت حتى اشتف آخره ... فما استكان لما لاقى وماجزعا
فإن يكن « أرطبون » الروم قطعها ... فإن فيها بحمد الله منتفعا

وحديث القعقاع بن عمرو التميمى عن بطولته الرائعة ، وجهوده الموفقة فى حرب الشام والعراق ، يعلن عن بلائه فى الحرب ، وقدرته على تصوير مشاهد القتال ، وتسجيل أنباء النصر ، فقد اشترك فى معارك كثيرة ، ولم يترك معركة اشترك فيها إلا وصورها فى شعره ، مشيداً ببطولته وبطولة المسلمين . فعل ذلك فى الحضير ، وفى الولجة ، وفى الثنى ، وفى الحيرة ، وفى

---

(١) الإصابة ٥٩/٣

الحصيد ، وفى الخنافس والمصيخ ، وعند اليرموك ودمشق وفحل، وفى القادسية والمدائن وجلولاء وحلوان ، وأخيرا فى نهاوند ... يقول فى يوم نهاوند مفتخراً بقومه الذين أبلوا معه فى هذه المعركة بلاء حسنا ، معدداً فعالهم بالفرس (١) .

رمى الله من ذم العشيرة سادرا ... بداهية تبيض منها المقادم
فدع عنك لومى لاتلمنى فإننى ... أحوط حريمى والعدو الموائم
فنحن وردنا فى نهاوند موردا ... صدرنا به والجمع حراق داحم
ونحن حبسنا فى نهاوند خيلنا ... بشر وبال أنتجت للأعاجم
فتحن لهم بيتا وفصل سجلها ... غداة نهاوند لإحدى العظائم
ملأنا شعابا فى نهاوند منهم ... رجالا وخيلا أضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزاق على الصفا ... فلم ينجه منها انفساح المخارم
ألا أبلغ أسيدا حيث سار ويممت ... بما لقيت منا جموع الزمازم
غداة هووا فى وادخرد فأصبحوا ... تعودهم شهب النسور القشاعم
قتلناهم حتى ملأنا شعابهم ... وقد أنعم اللهب الذى بالصرائم

إن شعر الفتوحات الإسلامية يمثل جانباً هاما من جوانب الأدب الإسلامى ، ويبين فى وضوح وقوة إلى أى مدى فهم الإسلام وظيفة الشعر ، ووجهه الوجهة التى يريدها ويطمئن إليها .

وإذا كانت الأمم الحديثة اليوم تسخر صحافتها وإذاعتها ، ووسائل الإعلام فيها لتغطية أنباء القتال — إذا قدر لها أن تنزل إلى ميدان القتال — فإن الشعر الإسلامى قام بهذه الوظيفة على وجه مرضى حين قدر للجحافل المسلمة أن تخوض غمار الحرب ، وأن تشارك فى رفع راية الله ، وإعلان

---

(١) أسد الغابة ١٢٢/٤

كلمة الحق ، وفى الوقت الذى لم يكن للمسلمين فيه صحافة تعبر عن آرائهم ، أو صحف تنشر أخبارهم ، وتهتم بأمورهم ، ولم تكن تلك وظيفة الشعر فى الفترة التى كان نور النبوة يشرق فيها على هذا الوجود ، أو فى عهد الخلفاء الراشدين من بعده . بل ظل الشعر يقوم بهذه الوظيفة طوال الفترة التى ارتفعت فيها راية الخلافة الإسلامية ، ترفرف فى أنحاء العالم الإسلامى . تحدثنا كتب التاريخ فى العصر العباسى أن المعتصم حين أراد فتح عمورية استشار العرافين ، وعلماء الفلك ، وأنهم أشاروا عليه بتأجيل المعركة حتى ينضج العنب ، وحذروه من عاقبة الزحف قبل هذا الموعد ، ولكن المعتصم لم يأبه بهذا التحذير ، وانطلق بجيشه إلى فتح عمورية ، وكان لهذا التصميم أثره الواضح ، فانتصر على الروم ، وفتح عمورية ... وقام الشعر بوظيفته فى هذا المجال خير قيام ، فارتفع صوته يسجل أنباء النصر ، وينقل أخبار المعارك ، ويذيع قصة عمورية وفتحها . وكان من أقوى الأصوات صوت أبى تمام الذى اندفع فى قصيدته البائية يسجل هذه الأحداث ، والتى بدأها بقوله (١) :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وقد قال فيها عن هذا الفتح :

عجائباً زعموا الأيام مجفلة ... عنهن فى صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ... مادار فى الفلك منها وفى قطب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يايوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

---

(١) ديوان أبى تمام ص ١١٥

أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد والمشركين ودار الشرك فى صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

وقد فهم الإسلام طبيعة الشعر فهما دقيقا حين وجهه ليكون أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعو الناس إلى الخير والبر . وإذا لم يكن هذا الجانب ظاهراً بوضوح فى عهد النبوة والخلافة الراشدة فقد ظهر فيما بعد ذلك واضحا جلياً . ذلك أن الناس فى عهد النبوة كانوا يعيشون فى ظلال القرآن ، ويستضيئون بهدى النبوة . فلم يكونوا بحاجة إلى مجموعة من أبيات الشعر ، ترقق مشاعرهم ، وتستثير وجدانهم ، وتدفعهم إلى الانخراط فى صفوف الصالحين . أما فيما بعد، فقد ابتعد الناس عن كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو بدءوا يبتعدون ، وأصبحوا بحاجة إلى من يذكرهم بالله ، ويدعوهم إلى الهدى ، ويوضح لهم أمور دينهم .

وقد قام الشعر الإسلامى بهذه الوظيفة الكبرى ، وظهر فى ساحة الأدب الإسلامى شعراء مجيدون ، يحملون لواء الدعوة إلى الله ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويجاهدون فى سبيل الله بالكلمة الطيبة ، والقول الحسن . وليس من شك أن الشعر فى هذا المجال أقوى أثراً ، وأكثر فائدة ، فهو أقدر على استثارة النفس ، واستنهاض الهمم ، لأن طبيعته مخاطبة العاطفة ، وإيقاظ الوجدان ، وتهيئة النفس لتقبل كل مايلقى إليها من نصح وإرشاد ، يقول أبو العتاهية مبتهلا إلى الله تبارك وتعالى ، معترفا بذنبه ، مقراً بضعفه ، راجياً عفوه ورضاه(١) :

(١) الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ١٩/٤ .

إلهى . لا تعذبنى فإنى ... مقر بالذى قد كان منى
فما لى حيلة إلا رجائى ... لعفوك إن عفوت وحسن ظنى
وكم من زلة لى فى الخطايا ... وأنت على ذو فضل ومن
إذا فكرت فى ندمى عليها ... عضضت أناملى وقرعت سنى
أجن بزهرة الدنيا جنونا ... وأفنى العمر فيها بالتمنى
وبين يدى محتبس ثقيل ... كأنى قد دعيت له كأنى
ولو أنى صدقت الزهد عنها ... قلبت لأهلها ظهر المجن
يظن الناس بى خيرا وإنى ... لشر الخلق إن لم تعف عنى

وكثيرا ما كان الشعراء يتخذون من الموت وسيلة للوعظ والإرشاد ، وذريعة للتذكير بالله ، والتخويف من العقاب ، لترق قلوب الناس ، وتلين أفئدة العباد وعند ذلك يسهل توجيههم إلى الخير ، وانقيادهم إلى طاعة الله . يقول أحمد بن عبد ربه :

كان سفيان بن عيينة يستحسن قول عدى بن زيد حيث يقول(٢) :

أين أهل الديار من قوم نوح ... ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الأسرة والأنما ... ط أفضت إلى التراب الجلود
ثم لم ينقض الحديث ولكن ... بعد ذا الوعد كله والوعيد
والأطباء كلهم لحقوهم ... ضل عنهم سعابهم واللدود
وصحيح أضحى يعود مريضاً ... وهو أوفى الموت ممن يعود

وفى عصرنا الحديث نرى الشعر يقوم بوظيفته فى توضيح مبادىء الإسلام ، وتحليل مشكلاته العديدة، وتحذير الناس من الانغماس فى الشهوات والملذات وبيان منهج الرسول ﷺ فى الدعوة إلى ربه، وكثيراً ما كان شوقى أمير الشعراء يتخذ من المناسبات الدينية المختلفة فرصة لإذاعة قصائده

---

(٢) العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه ١٠٨/٣ .

الإسلامية العصماء التى يمدح فيها النبى ﷺ، ويوضح منهجه فى الإصلاح، ويعلن عن روعة الإسلام وعظمته فى مبادئه وتعاليمه ومناسكه، يقول أحمد شوقى فى قصيدته البائية(١).

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى تبـدل كل آونة إهابا
ومن عجب تشيب عاشقيها وتفنيهم وما برحت كعابا
جنيت بروضها ورداً وشوكا وذقت بكأسها شهداً وصابا
فلم أر غير حكم الله حكما ولم أر دون باب الله بابا
ولم أر مثـل جمع المال داء ولم أر كالبخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها كما تزن الطعـام أو الشرابا
وخذ لبنيك والأيام ذخراً وأعط الله حصته احتسابا
عجبت لمعشر صلوا وصاموا ظواهر خشيـة وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المـال صماً إذا داعى الزكاة بهـم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منه كأن الله لم يحص النصابا
ومن يعدل بحب الله شيئا كحب المال ضل هوى وخابا
فى البر بينه سبيلا وسن خلاله وهدى الشعابا
وكان بيانه للهدى سبلا وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بناء المجـد حتى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ولـكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا

تلك طبيعة الشعر، استطاع الإسلام أن يوجهها لخدمة أغراضه، وتحقيق أهدافه، وأن يتخذ منها وسيلة حية ليعلن بها عن مبادئه وآرائه، ويذيع أفـكاره ومناهجه.

---

(١) الشوقيات جـ١ ص ١٠٤ .

واقد قام الشعر بوظيفته فى هذا المجال على الوجه الذى أراده الإسلام ، وارتضاه لأغراضه المتعددة ، وفنونه الكثيرة .

وإذا كان الإسلام قد فهم طبيعة الشعر ، ووجهه الوجهة التى أرادها له ، فقد فهم طبيعة النثر منذ اللحظة الأولى التى ارتفع فيها أول صوت فى مكة يبشر بدين الله ، ويدعو الناس إلى الحق والهدى والخير .

لقد كان للنثر وظيفة فى نظر الإسلام كما كان للشعر وظيفة ، وكانت وظيفة النثر الأدبى أن يحمل رسالة الله إلى الناس ، وأن يدعوهم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يسلط الأضواء الكاشفة على حياة المسلمين فيحلل مشكلاتهم ، ويجسد واقعهم ، ويوضح لهم الطريق السوى الذى يحقق أهدافهم ، ويوفر لهم السعادة فى دينهم ودنياهم .

كذلك فهم الإسلام وظيفة النثر ، ووجه فنونه وأغراضه ، فلقد حملت الخطابة لواء الدعوة الإسلامية منذ أول شعاع أشرق من نورها فى فجاج مكة ، تحدثنا كتب السيرة أن رسول الله ﷺ حين أمر بالجهر بالدعوة صعد على الصفا ، وقال : يامعشر قريش ، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، ثم قال : يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة — حتى عدد الأفخاذ من قريش — إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا . لا إله إلا الله (١) .

وكانت هذه الخطبة إشارة البدء ، فانطلقت الدعوة فى طريقها ، تحطم ما تلقاه من مبادىء فاسدة ، وتزيل ما يعترضها من عقبات شديدة ، وتدعو

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٠٢

إلى الله على بصيرة هى ومن اتبعها . وكانت الخطابة فى كل ذلك سلاحها الماضى ، ولسانها الناطق ، وأداتها القوية فى التعبير والبيان خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ، ثم أقبل على الناس فقال (١)

« أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الهرم ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الحياة من دار إلا الجنة أو النار .

وخطب رسول الله ﷺ أيام التشريق فقال بعد حمد الله : « يأيها الناس هل تدرون فى أى شهر أنتم ؟ وفى أى يوم أنتم ؟ وفى أى بلد أنتم ؟ قالوا : فى يوم حرام ، وفى شهر حرام ، وفى بلد حرام ، قال : ألا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ، ثم قال : اسمعوا منى تعيشوا . ألا لا تظالموا ـ ثلاثا ـ ألا إنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه . ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هذه . ألا وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ألا وإن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع ، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمى العباس . لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ، ولا تظلمون . ألا وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض . ألا وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيه أنفسكم . ألا لا ترجعوا بعدى كفارا

---

(١) الوسيط فى الأدب لأحمد الاسكندرى

يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن يسعى فى التحريش بينكم . اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإن لهن عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ، وإن خفتم نشوزهن فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، فإنما أخذتموهن بأمانة الله تعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، ثم بسط يده فقال : ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع »(١)

إن هذه الخطب البليغة التى أثرت عن رسول الله ﷺ كانت من العمد الراسخة التى قامت عليها الدعوة الإسلامية . فقد أرست مبادىء كثيرة ، وشرعت مناهج متعددة ، وسنت سننا واضحة ، وشرحت للمسلمين أهداف الدعوة ، ووسائل تحقيقها .

وهى إلى جانب ذلك كانت أداة التخاطب مع الوفود المقبلة على رسول الله ﷺ ، ووسيلة التفاهم مع القبائل والعشائر التى دخلت فى دين الله أفواجا ، وجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب أن يعلمها أمور دينها وأن يلقنها من الحكمة والخير ما تسعد به فى دنياها وآخرتها . وكان الرسول ﷺ يستجيب لذلك كله ، فيعتلى المنبر ، ويرسل من البيان والحكمة ما ينير به الطريق أمام المؤمنين ، ويفتح به مسالك الخير أمام الراغبين فى طاعة الله ، والحريصين على مغفرته ورضوانه .

وكذلك كانت الخطابة زمن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم . لقد اتخذوا منها وسيلة ناجحة ، ينبهون بها الغافل ، ويرشدون بها الحائر ، ويهدون بها الضال ، إلى جانب أنهم اتخذوا منها المنبر الأصيل الذى يعلنون

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٤٠

بواسطته أساليب حكمهم . ويحددون منهج حكومتهم ، ويرسمون خطتهم في الإدارة . ويوضحون طريقهم في سياسة المسلمين . وقد كان ضروريا أن يصعد الخليفة المنبر عقب توليه الخلافة وأن يخطب في الناس بعد بيعتهم له . فيوضح الخطوط العريضة التي سيسير عليها في قيامه بأمر المسلمين . خطب أبو بكر رضي الله عنه بعد أن بويع بالخلافة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه(١) : « أيها الناس . إني قد وليت عليكم . ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فأعينوني . وإن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم » .

وكذلك كانت خطب عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين بعد توليهم أمر الخلافة ، وبيعة المسلمين لهم . ومع أن هذه الخطب كان لها طابع رسمي إلا أنها كانت تتجه إلى توضيح حقوق الحاكم وحقوق المحكومين ، وتبين الخطة التي أرادها الخليفة ليحقق من ورائها نفع المسلمين ومصلحتهم وقد أصبحت هذه الخطب تقليداً مفيداً للخلفاء والحكام والولاة بعد ذلك ، يواجهون بها شعوبهم أول ما يواجهون حتى يكونوا على بينة من أمرهم ، وحتى يأخذوا أنفسهم بأساليب الحكم الجديد ، وحتى يتعاون الحاكم والمحكوم على أداء الرسالة التي قدر لكل منهم أن يحملها ، ويعمل على أدائها .

وإلى جانب هذا العبء الذي حملته الخطابة بأسلوبها الموجز ، وعبارتها الرصينة ، كان هناك عبء آخر استطاعت الخطابة أن تقوم به ، وأن تحرص على أدائه في سهولة ويسر ، ومن غير توان ولا تقصير . ذلك هو عبء الدعوة إلى الله ، وتذكير المسلمين بأمور دينهم وتبصيرهم بجوانب الخير والشر ، وذلك أمر له مكانته الرفيعة ، ومنزلته السامية ، ولقد وجد في العصور المختلفة جماعة من الوعاظ والنساك والزاهدين ، عزلوا أنفسهم عن ميادين الخلاف التي دبت بين طوائف المسلمين ، وابتعدوا عن المعارك الدائرة

والصراع المستمر ، وانجهوا إلى وعظ الناس ، وتوجيههم إلى عبادة الله عبادة خالصة بعيدة عن الزيف ، خالية من الضلال . وكان من هؤلاء الزاهدين الصالحين الحسن البصرى، وقد روى له الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الخطب . جاء فى إحداها (١) « يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا . يا ابن آدم . إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به الثواء هاهنا قليل ، والبقاء هنالك طويل أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس ، والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم ، من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غادياً رائحاً ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، ياابن آدم طأ الأرض بقدمك ، فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتذكر فاعتبر ، واعتبر وأبصر ، وأبصر فبصر ، ياابن آدم ، اذكر قوله تعالى «وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه . ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» (٢) . عدل — والله عليك — من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفاء الدنيا ، وذروا كدرها ، دعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم ، لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم إلا قرة العين، وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا بها . وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . لو تكاشفتم ما تدافنتم . تهاديتم الأطباق . ولم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله امرءا

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٠٥/٢ .

(٢) سورة الاسراء آية ١٣ ، ١٤

أهدى إلينا مساوئنا ، أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . يا ابن آدم . ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في القلوب ، وصدقته الأعمال »

إن أمثال هذه الخطب تمثل الروح الاسلامية الصافية التي كانت تحملها خطابة الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ، وسط ذلك الصراع الملتهب ، وبين ذاك الضجيج المستمر المنطلق من الخطابة السياسية المنتشرة في ذلك العصر .

ولقد ظلت الخطابة تحمل عبء الدعوة إلى الله حتى يومنا هذا ، وستظل إلى ما شاء الله . ولعل الاسلام حين ربط الجمعة والعيدين بالخطبة كان يؤكد هذا المعنى ويشير إشارة واضحة إلى أن الدعوة إلى الله هي الوظيفة الأساسية التي أرادها الإسلام للخطابة ، ووجهها إليها .

وإذا كانت الخطابة تمثل جانبا من جوانب النثر الأدبي فإن الكتابة تمثل جانبا آخر له قيمته وأثره .

ولقد عني الإسلام بهذا الجانب عناية كبيرة ، واتخذ منه أداة لنشر رسالة الله ، ووسيلة لإعلانها وذيوعها . وكان دليل اهتمام الإسلام بالكتابة أن وجه المسلمين إلى تعلمها . واشترط لفداء الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين .

حقيقة تأخرت الكتابة في أداء رسالتها عن الخطابة . ولم يكن ذلك لقصور فيها ، ولكن لأن أدواتها لم تكن قد هيئت بعد . فالذين يجيدون القراءة والكتابة قلة من المسلمين . والكثرة الغالبة تجهل مبادئها وحروفها، فهم بحاجة إلى الكلمة المسموعة ؛ وليسوا محتاجين إلى الكلمة المقروءة ، أضف إلى ذلك أن هذه الصفوة التي تجيد القراءة والكتابة لم تشغل نفسها بفنون الكتابة المتعددة . ولكنها ربطت نفسها بالقرآن الكريم تكتب ما يمليه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مما نزل به الوحي الكريم ، ولم يكن في وسعها

أن تتجاوز هذا الحد حتى لا يختلط ما تكتبه بآيات القرآن الكريم فنقع بذلك فى خطأ جسيم .

والذى أعرفه أن طبيعة المرحلة التى عاشها المسلمون فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن تتطلب فنا من فنون الكتابه الادبية . فالقرآن الكريم فيه هدى ونور ، والحديث الشريف فيه بيان وتفصيل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم بين المسلمين . يوضح ماكان خافيا ، ويفصل ماكان مجملا ، ويقدم لهم ما يحتاجون إليه من إرشاد أو توجيه . ولكن طبيعة تلك المرحلة كانت بحاجة إلى الكتابة الوظيفية التى تعمد إلى التدوين والتصنيف لا إلى الإنشاء والتأليف ، وكذلك كانت وظيفة الكتابة فى ذلك الوقت ، فقد اتخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أداة لتدوين مانزل من الوحى . فكان هناك كتاب يكتبون ما يمليه عليهم رسول الله عليه وسلم مما نزل عليه من كتاب الله ، ثم اتخذ منها وسيلة لنشر الدعوة بين الملوك والرؤساء حين بدأ الامر يستقر لهذه الدعوة ، وأصبح ضروريا أن تنتشر فى بقاع الارض فأرسل يدعوهم إلى الاسلام ، ويحملهم تبعة كفرهم ، وكفر أتباعهم ممن لم يدخل فى دين الله ، وتلك كلها نماذج للكتابة الوظيفية .

ويدخل تحت هذا اللون من الكتابة لون آخر ظهر فى عهد الخلفاء الراشدين ، واستعملوه فى تنظيم الدواوين ، وضبط الاعمال ، وتسيير الجند وتوجيه الولاة والقضاة والعمال ، ومن ذلك ما بعث به عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الاشعرى رضى الله عنهما يقول :(١) أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك الخصم ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البينة على من ادعى ، واليمين على

---

(١) العقد الفريد لاحمد بن عبد ربه ج ٢ ص ١٤٢ .

من أنكر ؛ والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، ثم راجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، الرجوع إليه خير من التمادى على الباطل . الفهم الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما يبلغك به كتاب الله ، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . واعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله ، وأشبهها بالحق واجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه ؛ فإن أحضر بينة أخذت له بحقه . وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أجلى للعمر وأبلغ فى العذر ، والمسلمون عدول ، بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حق ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة أو نسب ؛ فإن الله عز وجل ولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبينات والايمان ، ثم إياك والتأذى بالناس ، والتنكر للخصوم فى مواطن الحقوق التى يوجب الله عز وجل بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فإنه من تخلص نيته فيما بينه وبين الله . ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره .

وقد ظلت الكتابة الإسلامية على هذه الحال فى عهد بنى أمية ، وفى المدة التى حكم فيها بنو العباس ، فيما عدا مجموعات من الكتب تشرح مبادىء العقيدة ؛ وتفسر كتاب الله تبارك وتعالى ، وتخدم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لون من الكتابة أدخل فى باب الكتابة العلمية منه فى باب الكتابة الأدبية . حتى هذه الكتب التى ألفها الباقلانى والجرجانى وغيرهما فى أسلوب القرآن الكريم ، وفى أسرار بلاغته ، وفى دلائل إعجازه . لا يطمئن الباحث المنصف إلى إدخالها فى دائرة النثر الأدبى ، ولكنه يطمئن تمام الاطمئنان حين يدرجها فى إطار الكتابة العلمية ، ذلك أن المباحث التى اشتملت عليها تدخل فى منهج البحث العلمى أكثر مما تخضع لمقاييس الأسلوب الأدبى .

لكننا فى العصر الحديث نرى كثيرا من الكتب تعرضت بالتحليل والدراسة لشخصيات إسلامية بارزة أو لموضوعات إسلامية حديثة بأسلوب الناقد الفاحص ، أو بتحليل الباحث الدقيق ، كل هذه الكتب أو كل هذه الموضوعات تعتبر من الدراسة الأدبية الجادة ، أو من النثر الأدبى الأصيل فكتابات العقاد التى تدور حول « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » و « عبقرية الصديق » و « عبقرية خالد » ، كلها كتابات إسلامية ناجحة وكلها كتابات تدخل فى دائرة الكتابة الأدبية ، لأنها كتبت بأسلوب أدبى رصين ، وقل مثل ذلك ، أو قل أكثر من ذلك فى الكتابات التى كتبها كتاب مسلمون من أمثال الرافعى ، والشهيدين حسن البنا . وسيد قطب . ومحمد حسنين هيكل . وأبى الأعلى المودودى وأحمد أمين وكثير وكثير غير أولئك وهؤلاء . إن هؤلاء الكتاب بكتاباتهم الإسلامية الجادة استطاعوا أن يطوعوا الأدب فى أيديهم . وأن يجعلوا الأدب وظيفة جادة يرضى عنها الله ورسوله .

وليست هذه الوظيفة مقصورة على تلك الكتب الإسلامية التى يؤلفها أولئك الكتاب بأسلوب أدبى ممتاز بل تبدو واضحة جلية فى كثير من الأشكال الأدبية التى ظهرت فى ذلك العصر الحديث . فالمقال الأدبى مثلا من الأجناس الجديدة التى تمخض عنها الأدب فى العصر الحديث وهو من الأجناس الطيعة الممتازة التى يمكن توجيهها لخدمة الإسلام ، ولصالح المسلمين . حسبنا أن تتجه الأقلام المؤمنة إلى هذا المجال . وأن توجه الطاقات القادرة إلى هذا الميدان وأن تربى البراعم الفتية الناشئة من الكتاب على الالتزام الكامل بآداب الاسلام ومبادئه فى بناء المجتمع السليم .

ولست أنكر أن جهودا موفقة بذلت فى هذا السبيل ، ولكنها جهود مبعثرة متنافرة ، لم تجد القدرة الهائلة التى تجمع شتاتها ، وتوحد طريقها

لتؤتى ثمارها كاملة . وتقتصد الوقت والجهد فى سبيل الوصول إلى الهدف المنشود .

ومع ذلك كله فقد بدأ المقال الإسلامى يقوم بوظيفته على الوجه المرضى منذ بدأ الوعى الإسلامى ينتشر فى صفوف المسلمين ، ومنذ وجد دعاة مسلمون يجيدون القول . وينتقون الكلمة الواعية ، والعبارة السليمة ومنذ وجدت صحف ومجلات إسلامية تفتح صدورها لكل كاتب مسلم ، يرعى حق الخالق ، ويتقى الله فى قلمه ولسانه .

نستمع إلى الكاتب المسلم عبد الوهاب عزام ، وهو يقاوم الزحف الغربى الجديد ، ويدعو إلى دراسة ما يأتى به الغرب دراسة متأنية واعية ، فيقول(١) إن الشرقيين يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم ، كما يأخذون منهم منسوجات القطن والصوف ، ومصنوعات الحديد والنحاس ، وأصناف الأحذية، وتبع هذا الإعجاب بأوربا ، والزراية على الشرق، أن نسى الشرقيون تاريخهم ، وسير عظمائهم ، وكم فيهم من قدوة حسنة ، ومثل عظيم ، وكلفوا بتاريخ أوربا ، وسير رجالها ، على انقطاع الصلات بهم ، وأسباب الفخار بآثرهم ، فتقطعت بينهم وبين آبائهم وبلادهم الأواصر ؛ وكأنهم أوان شرقية تملؤها أوربا بما تشاء من حلو ومر ، وجيد وردىء ، فزايلتهم العزة والحمية والغيرة التى تدفعهم إلى المعالى ، وتسمو بهم عن مواطن الدنايا ، وضربهم التقليد بمساوئه . وما التقليد إلا أن يميت الإنسان عقله وقلبه ؛ ثم يتبع كل ناعق ، فعجزوا أن يجاروا أوربا فى معالى الأمور ، والجد والحق وضعف كواهلهم أن تحمل أعباء العلم والعمل التى ينهض بها كرام الغربيين ، وهان عليهم أن يسعوا إلى الدنايا ، ويتهافتوا على الملاهى والعادات السيئة ، وكل ما لا يعوزهم إلى عقل وإدراك ، ورأى نفاذ ، وقلب أبى ونفس صبور ،

---

(١) ملحق السياسة الأدبى بتاريخ ١٤/١٠/١٩٣٢

وهمة مخاطرة. وعزم مقدام وعزة طامحة إلى العلياء.

ذلكم حالنا اليوم، وموقفنا من أوربا، وذلكم شرحال، وأسوأ موقف، فما وراء هذه الأدواء إن أردنا لأنفسنا السلامة والعافية؟

أول عنصر فى هذا الدواء أن نجد أنفسنا بعد أن فقدناها وضللنا عنها أعنى أن نعد أنفسنا أناسى أحياء مفكرين. لهم حقوق فى هذه الحياة وعليهم واجبات. يربأون أن يسخروا لغيرهم. وأن يكونوا عالة. يأخذون ولا يعطون وينقادون ولا يقودون. ويعلمون ولا يعلمون. ويأتمرون ولا يأمرون. فاذا أحسسنا فى أنفسنا كرامة الانسان. وأنفة الحر. فكرنا فعرفنا الذى نأخذ من أوربا والذى ندع. والذى نستحسن لأنفسنا والذى نستقبح. ونقدنا فقلنا: هذا حلال وهذا حرام، وهذا طيب وهذا خبيث، ثم رجعنا إلى تراث آبائنا نحفظ منه كل مفخرة. ونعتز فيه بكل مأثرة. وخططنا لأنفسنا فى معترك الحياة خطة من عمل عقولنا وأيدينا. ووحى تاريخنا وآدابنا. نصل ماضينا وحاضرنا بالمستقبل الذى هو أشبه بنا وبأخلاقنا وآدابنا وعقائدنا وتاريخنا.

وإذا أحسنا التفكير عرفنا فرق ما بين الصناعات والأخلاق والعادات ولم يلتبس علينا ما نأخذ من أوربا من العلوم الطبيعية ونتائجها. وما نتجنب من أخلاقها وآدابها. فإنه لا فرق بين الحساب والهندسة والكيمياء فى الشرق والغرب. ولكن شتان ما بينها فى العقائد والخلق. وسنن الاجتماع وما يتصل بذلك. فإن لكل أمة من أخلاقها وآدابها ثوبا حاكته القرون وعملت فيه الأجيال فليس يصلح لغيرها. ولا يصلح لها غيره.

بهذا المنطق الرزين الهادىء استطاع الكاتب المسلم أن يحدد الداء الوبيل الذى أصاب المسلمين. وأن يصف العلاج الناجع لهذا الداء. وأن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الأخذ بهذا العلاج. ليبدأ المسلمون من علتهم

ويتجهوا الاتجاه الصحيح إلى بناء حاضرهم ومستقبلهم .

وقد ظهر فى هذا العصر كتاب كثيرون اتخذوا من المقال سلاحا قويا يدافعون به عن العقيدة السليمة . وينشرون عن طريقه الفكر الإسلامى الصحيح . ويشرحون بواسطته مبادىء الإسلام السامية . ومناهج التربية الإسلامية الرفيعة .

ومن الأجناس الأدبية الجديدة التى ظهرت فى العصر الحديث القصة والمسرحية .

ولهذا اللون الأدبى اثره الواضح فى توجيه الشباب . وتربية الشعوب .

ولقد اتسع الأدب الإسلامى لهذا اللون . وأدرك أبعاده ومراميه . ووجهه التوجيه الملائم الذى يصل به إلى تحقيق الهدف المنشود .

وإذا كنا نطمع فى تخطيط شامل يهدف إلى تجميع الجهود المبذولة لتنمية القصة الإسلامية . وتوسيع آفاقها ومجالاتها . فإننا لا ننكر أن هناك خطوات انطلقت فى هذا الطريق . وهى خطوات مباركة طيبة . ولكن الذى نرجوه أن تتضاعف هذه الخطوات . وأن تتعاون القوى والجهود لتوجيه القصة والمسرح إلى خدمة مبادىء الاسلام وتحقيق أهدافه الكبرى .

إن تاريخنا الاسلامى حافل بالمواقف الجيدة والأحداث المثيرة والفتوحات الواسعة والرجال الأفذاذ . وتلك جوانب مشرقة لو وجدت الأقلام القادرة على صياغتها صياغة قصصية ممتازة . ووجدت المواهب التى تقدمها للقراء فى صور روائية رائعة . أو تخرجها على خشبة المسرح فى مشاهد تمثيلية ناجحة لكان لها أكبر الأثر فى تحقيق أهداف الإسلام . وخدمة أغراضه النبيلة .

وبعد . فإن للأدب آفاقه الرحبة . وللإسلام مقاصده النبيلة . ولقد فهم الإسلام وظيفة الأدب فهما سليما . ووجهه الوجهة التى أرادها له . وكان

الأدب حريصا على القيام بوظيفته أمينا فى أدائها . لأنها تتفق مع طبيعته . وتتلاءم مع خصائصه ومقوماته .

وسيظل الأدب إلى ما شاء الله يؤدى هذه الوظيفة التى تتمثل فى نشر رسالة الله . والذود عن حياض الدين . والدفاع عن مبادئه ومقدساته . والسمو بوجدان المسلم . والتأثير فى عاطفته ومشاعره . وتوجيهه إلى أداء الأمانة التى حملها دون خلق الله أجمعين .

الروح الأندلسية فى شعر شوقى

للدكتور عبد الصبور ضيف محمد

إذا نظرنا إلى شعر شوقى فسنجد أن أول طيف للأندلس يطل علينا من وراء قافية بيت له ، من قصيدة ألقاها عام ١٩٨٤ فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى جنيف ، عرض فيها لرسالة الإسلام التى نبتت فى البيداء وأطلعت من الصحارى ، من قلب الخيام أسوداً فتحوا الدنيا وقادوها (١) نحو النور ، ونشروا فيها الحضارة وحكموا بعدلهم الارض ، وفى ذلك قال :

تشهد الصين والبحار وبغدا   د ومصر والغرب والحمراء (٢)

فهذه الحمراء رمز للحكم العربى والحضارة الإسلامية فى الأندلس وهى صورة غامضة تمثل فى ذلك رصيد شوقى من « الفكرة الأندلسية » فى شعره .

وتعود هذه الصورة الغامضة أيضاً ، فتراها فى بيت من قصيدة شوقى التى رفعها إلى السلطان ، عندما نزل فى ضيافته فى الآستانة عندما قال (٣)

ويبيت الزمان (أندلسيا)   ثم يضحى وناسه أعجام (٤)

وكأن ناشر ديوان شوقى أحس بغموض الصورة أيضاً ، فحاول إيضاحها حين فسر الزمان الأندلسى فى الهامش بأنه زمان الأندلس أيام عز العرب والإسلام فيها .

---

(١) الشوقيات ١/٣١   (٢) الشوقيات ١/٢٤٢

(٣) الحمراء قصر مشهور بالأندلس

(٤) أندلسيا : أى مكان الاندلس أيام عز العرب والإسلام فيها .

وتظل الصورة قائمة لايواريها غموض حين تعود إليها مرة ثالثة فى القصيدة التى يمجد فيها السلطان محمد رشاد الخامس ويخاطب فى آخرها الآستانة ويناجيها بجوى محب هائم بها ، ينتمى إليها بصلة الدم والقربى من طريق أمة أبيه فهى إذا مهد أصوله ، وقد حركت شاعريته وأطلقته قبسا يضىء الشرق ، قبسا فريداً .

لم تكثر (الحمراء) من نظرائه   نسلا ولا بغداد من أمثاله (١)

والحمراء هنا — يحشرها فى زمرة واحدة مع بغداد ، والآستانة يجب أن تعكس مفهوم العاصمة الإسلامية الكبرى التى يؤمها الشعراء من كل جانب ، ويزدحم على أبوابها أصحاب المواهب فتكون لكل منهم مصدر وحيه وإلهامه ، حتى إذا بزغ نجم العبقرى منهم فيما خفقت أجنحته فى سمائها فى هالة من النبوغ والمجد والخلود .

وتعود صورة الأندلس مرة رابعة عندما يزور الخديو عباس مدينة طنطا وحين بعث الحياة والعمران فى رسمها البالى (٢) .

أنظر إلى كل عال من معاهدها   تنظر « طليطلة » فى عصرها الخالى

فطليطلة هنا تمثل دوراً لم يكن لها فى تاريخ الأندلس وصاحب هذا الدور العظيم فى حياة الأندلس هى قرطبة وجامعها الكبير ، فإلى قرطبة لا إلى طليطلة كان الطلاب يقدمون من الشرق والغرب لينهلوا منها العلم ، ويتزودوا من المعرفة ، وشوقى حين وصل إلى طليطلة هذا الدور لم يكن رصيده الأندلس .

ولانقول إن الوزن الشعرى هو الذى جاء (طليطلة) ولم يكن قادرا على الاتفاق بقرطبة ، فمثل شوقى الشاعر الكبير لايستعبده الوزن ولاتحكمه الصنعة .

---

(١) الشوقيات ١/٧٢   (٢) نفس المرجع .

إلى هنا تظل صورة الأندلس غامضة غائمة فى شعر شوقى ، ولن تفتح لأعيننا بعض الخطوط فيها إلا فى عام ١٩١٢ عندما تنهمر دموع الشاعر أثر سقوط أدرنة فى يد « البلقان » ، وبسقوطها هوى الإسلام عن مقاطعة مقدونيا الإسلامية ، وضياع مقدونيا فى عين الشاعر صورة ثانية لضياع الأندلس (١) فقد خرج المسلمون من الأندلس وهاهم أولاء اليوم يخرجون من مقدونيا ، فمقدونيا إذاً أخت للأندلس ، أهى أندلس جديدة من حق الشاعر أن يبكيها ويصور الجرح الذى أصاب المسلمين بسقوطها (٢)

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها   طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه   قدر يحط البدر وهو تمام

ومقدونيا والأندلس جرحان أصيب بهما المسلمون من عرب وترك .

جرحان تمضى الأمتان عليهما   هذا يسيل وذاك لا يلتام
بكما أصيب المسلمون وفيكما   دفن اليراع وغيب الصمصام
لم يطو مأتمها وهذا مأتم   لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
مابين مصرعها ومصرعك انقضت   فيما نحب ونكره الأيام
خلت القرون كليلة وتصرمت   دول الفتوح كأنها أحلام
والدهر لا يألو الممالك منذراً   فإذا غفلن فما عليه ملام

وبعد أن يصف المسلمين أغاربين المهاجرين بعد سقوط مقدونيا ، يخاطب الأمة العثمانية فينعى عليها تفرقها وتخاذلها ، ويدعوها إلى الاتحاد والوئام وترك التفاخر والغرور فيقول :

وقف الزمان بكم كموقف « طارق »   اليأس خلف والرجاء أمام (٣)

---

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمون   (٢) الشوقيات ١/٢٧٢

(٣) الشوقيات ١/٢٧٩

فوقف ابن عثمان اليوم كموقف طارق فاتح الأندلس حين أحرق سفن الجيش ثم خطب فى الجيش ، أن البحر وراءه ، والعدو أمامه، فاذا نكص عن القتال وقع بين عدوين ليس منهما غير الهلاك ودعا الجند إلى الصبر والعزيمة والصدق .

هذه الصورة الحزينة الجريحة التى يرسمها شوقى لنكبة العثمانيين فى مقدونيا أضفت بألوانها على الصورة الأخرى التى أراد أن يصور فيها نكبة العرب فى الأندلس ، ليعقد بين الصورتين صلة ، ويقارن بينهما ، ولكننا إذا اقتنعنا بما تقدمه هذه المقارنة من الخطوط المتشابهة ، والألوان المتماثلة بين الصورتين قلنا إن رصيد شوقى من الفكرة الأندلسية لا يزال فقيرا .

ونحن بعد هذا نستطيع أن نؤكد أن رصيد شوقى من هذه الفكرة عام ١٩١٢ لا يزيد عما له فى الأندلس الجديد، وسنجد أن الروح الأندلسية ستظهر واضحة فى شعر الشاعر المنفى ؛ ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها فى عام ١٩١٨ أصبح فى حرية تتيح له أن يسيح فى أرض أسبانيا متنقلا بين ربوعها وقد قام فعلا برحلة يروى فيها ظمأه لزيارة هذه البلاد ، وقد زار مدن طليطلة وأشبيلية وقرطبة وغرناطة ، وكما يقول (١) كان البحترى رفيقه فى هذه الرحلة وكان قد أعجب بسينيته فى وصف إيوان كسرى حتى أنه كان يتمثل بأبياتها كلما وقعت عينه على أثر من آثار العرب بهذه المدن ورأى أنه البحترى انعظ بالآثار وخلدها فى ديوان شعره فرغب فى أن يترسم خطاه فى كسب العظة والعبرة من آثار هذه المدن وتخليدها ناسجا على منوال البحترى وألف قصيدته على وزن وروى سينية البحترى فإذا هو تائه فى غابة من أشجار المرمر وتلك هى سوارى المسجد قد بدت فى استوائها مثل ألفات الوزير ابن مقلة المعروف بجودة خطه (٢) .

---

(١) راجع الشوقيات ٢/٤٤ (٢) الشوقيات ٢/٥٠

بلغ النجم ذروة وتناهى بين ثهلان (١) في الأساس وقدس (٢)
مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار (٣) كأنها في استواء ألفات الوزير في عرض طرس (٤)

ويطوف شوقى بأرجاء المسجد، حتى يصل إلى المحراب، ويرى عليه من بديع الخطوط فيذكر بالثناء والتقدير بانى المسجد عبد الرحمن الداخل (٥).

ومكان الكتاب يغريك ريا ورده غائباً، فتدنو للمس (٦)
صنعة الداخل (٧) المبارك في الغرب وآل له ميامين شمس (٨)

ويستثير عبد الرحمن الداخل إعجاب الشاعر، فصقر قريش بطل عربى غامر بنفسه ليقيم لأسرته ملكا جديدا فى الغرب ويخفق قلب الشاعر وهو يذكر أنه الآن فى الرحاب التى أسس فيها الداخل دولة الامويين، والتى تضم أرضها عظامه؛ فينطلق لسانه بالشعر يتغنى بأمجاد ذلك الصقر، ويختار شوقى هذه المرة لحنا أندلسيا، فيعزف لنا على قيثارته موضحة يرسم فى مقاطعها صورة البطل الاموى. منذ قدومه من المشرق. إلى تأسيس الدولة الاموية فى المغرب.

لم يدع ظلا لقصر «المنية» وكذا عمر الامانى قصير
كنت صقراً (٩) قرشيا علما ما على الصقر إذا لم يرمسى

---

(١) ثهلان: جبل بالعالية (٢) قدس: جبل عظيم بنجد

(٣) السوارى: واحدتها سارية وهى الأسطوانة «العمود»

(٤) الوزير يعنى به ابن فعلة المشهور بجودة الخط.

(٥) الشوقيات ٥٠/٢ (٦) رياورده: أى رائحة ورده.

(٧) الداخل: هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أبو على مؤسس الدولة الاموية بالأندلس.

(٨) الشمس: الابادة (٩) صقر قريش هو عبد الرحمن الداخل لقبه أبو جعفر المنصور أنظر الأدب الاندلسى ص ١٠٧

إن تسل أين قبور العظما ؟   فعلى الأفواه أو فى الأنفس(١)

فى هذا القصر العربى قضى شوقى فترات طويلة يطوف فى أبهائه ويتنقل فى حجراته . ويرى القسم الذى أضافه الأسبان إلى القصر يشوهون به جماله الخالص . فبدأ خليطا من الطرازين الشرقى والغربى . كان شوقى يبحث عن الملك الشاعر المعتمد بن عباد وزوجته الشاعرة الجميلة الرويكية وابنتها بثينة وجدتها العبادية . ولكنه لم يجد أحدا منهم فى القصر . فقد داهم يوسف الملك العبادى . ونفى الأسرة المالكة كلها . غير أن بحث شوقى عن أبطال روايته وأميرة الأندلس لم يضع سدى . فأطياف هؤلاء تضيق بها أجواء القصر الخالى . وتموج بها ظلال الحدائق العربية القلب وراء القصر الحزين وخيال شوقى قادر على أن يلتقى بهذه الأطياف . ليتبين ملامحها من قرب ، ويتمثل من خلالها وصفه الأيام الأخيرة لحكم ابن عباد فى إشبيلية ، قبل غزو المرابطين لها .

يبدو أن غرناطة كانت آخر مدينة فى الأندلس تركت فى نتاج شوقى الأندلسى صورة لآثارها .

كانت غرناطة آخر معقل للعرب فى اسبانيا وذلك بتسليم أبى عبد الله الصغير آخر ملوك بنى الأحمر إلى فرديناند وإيزابيلا مفاتيحها ، خرج العرب منها وخلفوا فى هذه المدينة أضخم أثر عربى ، تزهو اليوم به الأندلس ، وتهب إليه قلوب السياح من كل مكان فى الأرض ليروا إحدى معجزات الإنسانية ومعجزة الحضارة العربية والفن الإسلامى فى إسبانيا إنه قصر الحمراء ، حصن غرناطة ودار بنى الأحمر ، ولا يزال إلى اليوم كما تركه أبناؤه الامجاد ، أعجوبة تخلب الألباب يفتن زائريه .

---

(١) الشوقيات ص ١٧٨ ج٢

يقع قصر الحمراء فوق آكام عالية تطل على غرناطة تحيط به جنات وارفة الظلال من حدائق القصر ، ويشرف على هذه الآكام جبل شـيرى والثلوج تتألق عليه تألق الفضة ولا تفارق قممه فى الصيف ولا فى الشتاء ، فهو شبيه بالمرمر كما بدا لعينى شوقى(١) :

حصن (غرناطة) ودار بنى (الأحـ مر) من غافل ويقظان ندس(٢)
جالَ الثلج دونها رأس (شـيرى) فبـــدا منه فى عصائب برس(٣)
سرمد شـيبه ، ولم أر شـــيبا قبـــله يرجى البقـاء وينسى

وقبل أن يصل شوقى إلى الحمراء لا بد له من صعود ذلك الطريق المنحدر المظلل بأغصان الشجر الكثيف ، وإذا كانت السنون الخمسون يؤذيها مثل هذا الصعود مشياً فعلى الشاعر أن يتمهل فى السير ، وأن يقف قليلا عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسه تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس ، إنها فيما يقال : رمز العقيدة الإسلامية بأركانها الخمسة .

قصر الحمراء :

ولا نحسب شوقى الآن بحاجة إلى الدليل ، فالشاعر العربى الآن يطوف فى محراب قصر بناه أجداده ووضعوا فيه شيئا من روحهم ، وملأوا جدرانه بالآيات والأشعار العربية ومن البداهة ألا يحتاج الإنسان فى بيته إلى دليل .

طاف شـوقى فى غرف الحمراء ، وحجراته الرحبة الواسـعة وكلها آية فى الروعة والجمال زاهية بالنقوش الدقيقة ، ووقف قليلا بقاعة الشعراء وهى أجل غرف الحمراء وفيها كان ملوك بنى الأحمر يقابلون رسول ملوك الإفرنج

(١) الشوقيات ٥٠ ، ٥١ / ٢
(٢) الندس : الفهم .
(٣) عصائب برس : أى بيض كالقطن .

وشعراءهم وتحوى جدرانها أبدع النقوش والخطوط ، وهى تطل على حى البيازين من غرناطة من جهاتها الثلاث ، والجهة الواقعة تفضى إلى قاعة البركة ومنها إلى ساحة الريحان ، تحيط به سبعة من الأسود المرمرية وتوالين ظهورها ، والماء يتدفق من أفواهها عذبا صافيا فتلتقط شاعرية شوقى هذه الصورة(١) :

لا (الثريا) ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار إنس
مرمر قامت الأسود عليه كلة الظفر . لينات المجس
تنثر الماء فى الحياض جمانا يتنزى على ترائب ملس

ثم يتلفت الشاعر حوله ، يبحث عن ملكات بنى الأحمر ، فأين هى الزبا زوج أبى الحسن على أحد ملوك بنى الأحمر قبل أبى عبد الله الصغير ، واين حسن جواريها ؟ إن مجلس السباع كئيب مقفر خال :

وترى مجلس السباع خلاء مقفرا القاع من ظباء وخنس
لا (الثريا) ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار إنس(٢)

هكذا بدت غرف الحمراء لعينى شوقى ، حزينة (أخنت عليها الحادثات) وأثقلها الألم .

مشت الحادثات فى غرف (الحمـ ـراء) مشى النعى فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس(٣)

ويخرج شوقى من الحمراء وفى نفسه حرقة وألم ، فكيف أضاع العرب مثل هذا الملك الزاهر وكيف تخلو عنه وتركوه وخرجوا أذلة صاغرين !

لقد بنى الأجداد فهدم الأحفاد ، وباع الوارث تراثه المجيد بثمن بخس . وعندما يصل شوقى إلى فندق (واشنطون) حيث يقيم مع

---

(١) الشوقيات ٢/٥١ .
(٢) الشوقيات ٢/٥١ .
(٣) نفس المرجع .

مع أسرته فى قلب الغابة المحيطة بالحمراء يقف طويلا أمام الصورة الزيتية المعلقة فى بهو الفندق ، والتى تمثل الملك العربى أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة، وهو يسلم فى خضوع مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك وتثور فى نفس شوقى العربى المسلم حسرات وآلام وهو يرى النهاية الحزينة لقصة المجد العربى فى الأندلس ، فيحمل حملة عنيفة على ذلة ابن عبد الله الصغير واستسلامه(١) :

ومفاتيحها مقاليد ملك باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم عن حفاظ كموكب الدفن خرس(٢)
رب بان لهادم — وجموع لمشت ، ومحسن لمخس
إمرة الناس همة ، لا تأتى لجبان ، ولا تسنى لجبس(٣)

ومن الروح الأندلسية عند شوقى قصيدته القومية التى عارض فيها ابن زيدون .

بين شوقى وابن زيدون

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومى القرطبى(٤) ، ولد بقرطبه عام ٣٩٤ هـ — (١٠٠٤) م ونشأ بها وتثقف ، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة ، وكانت قرطبة فى ذلك الوقت

---

(١) الشوقيات ٥١ ، ٥٢ / ٢ .
(٢) الحفاظ : الذب عن المحارم .
(٣) الجبس : الجبان .
(٤) راجع فى ذلك . الفن ومذاهبه فى الشعر الحديث ص٤٣٨، د.شوقى ضيف ، الشعر والبيئة فى الأندلس ص ٧٨ الدكتور ميشال عاصى ، بإيجاز عن دائرة المعارف للبستانى ج٣ ص ١٤٧ .

تزخر بالعلم والأدب ، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار والسير والأمثال ومباحث اللغة ، وأخذ يعالج فنون الأدب حتى بزغ فيها فتم فضله وذاع صيته ، وارتفعت مكانته .

وبينما كان ابن زيدون يسعى إلى التألق كانت شمس الدولة الأموية فى الأندلس تميل إلى الغروب ، وكان بنو جهور كغيرهم من الطوائف يحاولون الإفادة من ضعف السلطة المركزية للاستقلال بالأطراف ، فمال إليهم ابن زيدون حتى إذا وصل أبو الحزم ابن جهور إلى الحكم سنة ٤٢٢ ﻫ اتصل ابن زيدون بابن جهور أحد ملوك الطوائف فاتخذه كاتبا و مشيراً ونال ابن زيدون مركز الوزارة والسفارة لدى ملوك الطوائف فلقب (بذى الوزارتين)(١) .

يقول الدكتور زكى مبارك(٢) (وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته ببليتين لا يبتلى بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل والشهد والعلقم والنعيم والجحيم .

أما البلية الأولى فهى الحب ؛ وأما البلية الثانية فهى المجد وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق .

فنراه غارقا فى حب ولادة بنت الخليفة المستكفى ؛ وكان ابن عبدوس ينافسه فى هذا الحب ويظهر أنه كان أحد من وشى به إلى أبى الحزم ،إذ نسبت إليه مؤامرة ضده للعودة بزمام الأمور إلى بنى أمية ،فأودع السجن سنوات طوال ، وهو يضرع إلى أبى الحزم بشعره ورسالته الجدية(٣) .

---

(١) راجع الشعر والبيئة فى الأندلس ص٧٨

(٢) الموازنة بين الشعراء ص٣٤١ د. زكى مبارك

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٢٩

واستشفع بابنه أبي الوليد ولكنه لم يعف عنه فهرب من السجن ليلة عيد؛ ولجأ إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤٨ هـ فاستخلصه لنفسه واتخذه وزيراً له ، ومن بعده اتخذه ابنه المعتمر وزيره ومستشاره واستطاع بفضل جهوده أن يغزو قرطبة ويستولى عليها ، وتوفى فى إشبيلية عام ٤٦٣ هـ .

ولم تكن خصومة ابن زيدون لابن عبدوس ترجع إلى أسباب سياسية وإنما كانت ترجع إلى حبه لولادة بنت الخليفة المستكفى . وكانت مشهورة بالجمال والأدب شاعرة سافرة تساجل الشعراء ؛وتجادل العلماء وكانت دارها ناديا من أندية قرطبة ؛ يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة ومن هؤلاء ابن زيدون،فقد كانت فيه خفة(١) روح،وحسن دعابة، وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله وبادلته هى هذا الحب ؛ فأذكى هذا الفوز نار الحسد فى قلوب منافسيه ومزاحميه فسعوا فى الإفساد بينهما .

يقول صاحب الذخيرة إنها « أوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . كتبت - فيما زعموا — على أحد عاتقى ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها(١)

ولكن ابن عبدوس عاد إلى ولادة وظفر برضاها فكتب ابن زيدون رسالته الهزلية فى الاستهزاء بغريمه الوزير « ابن عبدوس » فى حب ولادة(٢) .

---

(٢) ابن زيدون د/حسن جاد حسن

(٢) الذخيرة ١/٣٧٦ .

(٣) النبع الصافى ص١٩٧ . د/محمد السعدى فرهود .

وقصيدته الحاوية لمعانى حبه، المسجلة لشتى آلامه . الممثلة لآماله فى الحب وأحلامه التى هى فى شعر الاندلس كله نجم يتألق . وعلم يخفق قوله يخاطب ولادة ومطلعها :

أضحى التنائى بـديلا من تدانينـا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

وهى أعظم قصائد ابن زيدون حظا من الذيوع والشهرة وبعد الصيت ولو لم يكن له سواها لاغنته بهذا الدوى الذى أحدثته فى البيئات الادبية وتلك المدرسة التى خلقها من الشعراء الكثيرين فى كل عصر . الذين أعجبوا بها وعارضوها .

فمن الذين عارضوها أحمد شوقى وهو شاعر بينه وبين ابن زيدون تشابه فى النفس والمجد والحب ، إلا أن الحب عند ابن زيدون حب لولادة والحب عند أحمد شوقى هو حب مصر ، وكلاهما لجمه الحب فيها (أحب) ، وكلاهما يصدر فى قصيدته عن شعور صادق وألم دفين ، وكلاهما يصور فيها لوعة البين وذل الحرمان . ووحشة الغربة . والحنين لمن أحب ، وذكرى أيام الأندلس والصفاء .

يقول زكى مبارك :

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء فى جميع البلاد العربية وهى فى الشعر العربى تذكر بليالى ميسيه فى الشعر الفرنسى . فكما أن الفرنسيين جميعا يعرفون ليالى ميسيه . فالعرب يعرفون جميعا نونية ابن زيدون(١) .

وسأبدأ بعرض النونية لابن زيدون(٢) .

---

(١) الموازنة بين الشعراء ص ٣٤٤

(٢) ديوان ابن زيدون ص١٦٥ و١٦٦ و١٦٧ شرح وتحقيق محمد سيد كيلانى . ابن زيدون وشعره ص ١٥٧ ومحمد السعدى فرهود . ديوان ابن زيدون ورسائله ص ١٤١ على عبد العظيم .

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبح البين صبحنا   حين فقام بنا للحين داعينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم   حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذى ما زال يضحكنا   أنسا بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا   بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا   وانبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا   فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
ياليت شعرى ولم نعتب أعاديكم   هل نال حظا من العتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم   رأياً ولم نتقلد غيره دينا
ما حقنا أن تقروا عين ذى حسد   بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه   وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا   يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا   ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية   قطافها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما   كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا   أن طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا   منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا سارى البرق القصر واسق به   من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك عنى تذكرنا   إلفا تذكره أمسى يعنينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا   من على القرب حيا كان يحيينا
فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة   منه وإن لم نكن غبا تقاضينا
ربيب ملك كأن الله أنشأه   مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه   من ناصع التبر إبداعا وتحسينا

إذا تأود آدته رفاهية   توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته   بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أثبتت فى صحن وجنته   زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر أن لم تكن أكفاءه شرفا   وفى المودة كاف من تكافينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا   وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها   منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته   فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة   وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت فى صفة   فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها   والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا   والسعد قد غض من أجفان واشينا
إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء ففى   مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا   حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لا غرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت   عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا   مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله   شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه   سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناه عن كثب   لكن عدتنا على كره عوادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة   فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا   سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
دومى على العهد ما دمنا محافظة   فالحر من دان إنصافا كما دينا
فما استعضنا خليلا منك يحبسنا   ولا استفدنا حبيبا عنك يثنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه   بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة   فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

وفى الجواب متاع إن شفعت به   بيض الأيادى التى مازلت تولينا
عليك منى ســـلام الله مابقيت   صبابة بـك نخفيـها فتخفينا

الموازنة بين النونين

عرفنا ابن زيدون العاشق الذى يحسن التحدث عن مآسى القلوب ، ويكاد يعرف أسرار النفوس ، ولكن كيف نستكثر القول فى شوقى ، إن نونية شوقى أعجوبة الأعاجيب وقد أرسلها فى أعقاب الحرب العالمية من الأندلس فضج لها شعراء مصر .

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان وكانت الأبيات السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة محرقة ولكن أين هى من بداية شوقى حين خاطب الطائر الحزين فى وادى الطلح بضاحية إشبيلية قائلا .

يانائح الطلح أشباه عــوادينا   نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

إلى أن قال :

لم تأل ماءك تحنانا ولا ظمــأ   ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا

والشاعر فى هذه الأبيات حيران ؛ يحمل الطائر فى حالين : حال المغترب وحال المقيم ، ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد مايرد نراه بلغ غاية الرفق حين قال :

تجر من فنن ساقاً إلى فنن   وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا

وهى حال تشهدها فى الطائر المحزون . فقد نرى الطائر يتنقل على غير هدى من أيك إلى أيك فتعرف أنه يبحث عن يواسيه .

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء . أما شوقى فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر فقال :

آها لنا نازحي أيك بأندلس وإن حللنا رفيقا من روابينا !!
رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والاجلال يثنينا

إلى أن قال:

كادت عيون قوافينا تحركه وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

ولنا أن نتأمل الحسن فى هذه الابيات ، فالشاعر يغلبه الدمع ، وهو يتذكر ملوك الاندلس ، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء ، لانه فى ديار قوم لم تنل الارض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود ، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله .

ثم قال شوقى فى الحنين إلى وطن النيل :

لكن مصر وإن أغضت على مقة عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا وحول حافاتها قامت رواقينا

ويذكر ابن زيدون :

ياسارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا إلفا تذكره أمسى يعنينا

وقد عارضه شوقى فقال :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دما هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم نهتك دياجيه على نيام ولم نهتف بساليا

إلى أن قال :

وحازك الريف أرجاء مؤرجة ربت خمائل واهتزت بساتينا

فترى ابن زيدون يسأل البرق أن يسقى القصر وأما شوقى فيسأل البرق

أن يأسو المنازل الذاوية، والمغانى الضاوية والمغنيان مقتربان، لكن شوقى أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وأعطى صورا من ريف مصر وخمائل مصر، لا تشوق إلا شاعرا ودع دنياه حين ودع النيل.

وقال ابن زيدون:

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا   من لو على البعد حيا كان يحيينا

عارضه شوقى فقال:

ويا معطرة الوادى سرت سحرا   فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها   قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا   بالورد كتبا وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية   عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكى نحمله   غرائب الشوق وشيا من أمالينا

إن ابن زيدون قال «يا نسيم الصبا»، وهو تعبير ورد فى قصائد عديدة أما شوقى فوصف النسمة بأنها معطرة الوادى، وأنها سارت فى السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق وأنها ذكية الذيل كأنها قميص يوسف وأنها جشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسما فى رسائل.

وابن زيدون يقول «بلغ تحيتنا»، وهى عبارة وردت فى صورة الأمر وبالتالى فهى جافية أما شوقى فيترفق ويقول:

هل من ذيولك مسكى تحمله   غرائب الشوق وشيا من أمالينا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية وشوقى يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو فى صفاء الدين.

وتذكر ابن زيدون أيام الأنس فقال:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

إلى قوله :

ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينـــا

وهو شعر رائع المعانى ، صافى الديباجة ولكن شوقى عارضه فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

شقيا لعهد كأكناف الربى رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء ذاهبة ترف أوقاتنا فيها رياحينـا

إلى قوله :

ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ماء لمسنا به الاكسير أو طينا

ولا ندرى أيهما أجود لأن ابن زيدون على قصر نفسه بلغ غاية الدقة والرشاقة حين قال :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية قطوفه فجنينا منه ماشينا

والدقة فى البيت الأول تؤخذ من صدق التعليل ، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التآلف ، تآلف القلبين ، واللهو لم يصف مورده إلا بالتصافى ، تصافى الحبيبين ، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء ، فهى تصفو حين تصفـــو النفوس ، وتقسو حين تقسو القلوب .

ويروقنا قول شوقى :

سقيا لعهد كأكناف الربى رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينـا
إذ الزمان بنا غيناء ذاهبة ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية والسعد حاشية والدهر ماشينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت لو كان فيها وفاء للمصافينا

الشاعر هنا جعل عهده فى نضرة الزهر الذى يتفتح فى أكناف الربوات ولأنه رأى اللين فى أيام الأنس شبيها باللين فى أعطاف الصبا جوهر نبيل

لا يعرف طيب لينها إلا شاعر امكنته من اعطاف الصبا سورة الصبوات ». والشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل ، وهذه الطرافة فى أخيلة شوقى لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شىء حين قال :

يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... منى ضروبا ولذات افانينا
ويا نعيما خطرنا من نضارته ... فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا

إننا نرى العذوبة فى الهتاف بالروضة ، ونتأمل عبارة « أجنت لواحظنا » كيف تعزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق ، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة ، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان ، وكيف يجنى القطوف .

واشترك ابن زيدون وشوقى فى التفجع والحنين فقال ابن زيدون :

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والدهر قد غض من أجفان واشينا

إلى قوله :

ولا اختيارا تجنبناه عن كثب ... لكن عدتنا على كره عوادينا

والشاعر فى هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين ، ويرى ورد الهوى القديم شربا لا يعدله شرب ، وإن كان يرويه فيظميه ، ويقيم الوصل يرهف الحس فيزيد القلب ظمأ إلى ظمأ .

وعارضه شوقى فوصف قسوة الليل وقسوة الفراق .

وناعى كأن الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه بجرح من فراقكمو ... يكاد فى غلس الأسحار يطوينا

إلى قوله :

يبدو النهار فيخفيه تجلدنا للشامتين ويأسوه تأسينا

وشوقى هنا يرى أشجانه لا تهدأ نهارا إلا بفضل التأسى والتجلد للشامتين.
وقد تفرد ابن زيدون بأبيات فى خطاب حبيبته التى اقصاه عنها الزمان حين قال :

تأسى عليك إذا حثت مشعشعة فينا الشمول وغنانا مغنينا

لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

فالشراب والغناء يهيجان العواطف الخافية ، ويبعثان الوجد الدفين وهذا من أدق المعانى النفسية ، وللشوق فى أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر المشبوب ، وأين الجمر بجانب ما يثور فى القلب عند الشراب والسماع .

وأيضا قال ابن زيدون :

ولو صبا نحونا من علو مطلعه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

وهو أصل المعنى الذى ساقه شوقى فى السينية :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهو أخذ رقيق لا يحاسب عليه الشعراء .

وتفرد أيضاً بوصف الجمال الإنسانى فقد اعطى محبوبته صورة هى تحفة فى الصور الانسانية عندما قال :

ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكا وقدر إنشاء الورى طينا

أو صاغه ورقا محضا وتوجه من ناصع التبر ابداعا وتحسينا

إذا تأود آدته رفاهية توم العقود وآدته البرى لينا

كانت له الشمس ظئرا فى أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا

كأنما أثبتت فى صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا

ماض إن لم نكن أكفاءه شرفا   وفى المودة كاف من تكافينا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة ؛ وفى الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون فى علم الجمال ، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم ، والزهر النضير الذى يضاحك الشمس فى حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسى الذى يتفتح وهو مهجور فى ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئاب . وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك ، ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين .

وتفرد شوقى بالفخر ، الفخر بنفسه وبأمجاد النيل فقال :

لم يجر للدهر أعذار ولا عرس   إلا بأيامنا أو فى ليالينا

ولا حوى السعد اطغى فى أعنته   منا جياداً ولا أرحى ميادينا

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا   ولم يهن بيد التشتيت غالينا

ولا يحول لنا صبغ ولا خلق   إذا تلون كالحرباء شانينا

إلى قوله :

إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا   خمائل السندس الموشية الفينا

وتفرد أيضا بقوة الفخر حين قال :

ولم يضع حجراً بان على حجر   فى الأرض الا على آثار بانينا

ولنا أن نعجب من روعة الخيال فى قوله :

كأن أهرام مصر حائط نهضت   به يد الدهر لا بنيان فانينا

ونرى دقة التشبيه فى هذا البيت :

كأنها ورمالا حولها التطمت   سفينة غرقت الا أساطينا

الصورة في شعر الجاهليين

تعبير عن الفكر والوجدان

د. عبد الإله محمود محروس

الصورة في الشعر :

كلمات اللغة ، وضعت للدلالة على مضامين حسية أو فكرية ، أي على مدركات الحواس والعقول ، فهي محدودة حنيقة ؛ لأنها تلم بالمحدود ، ومن ثم عجزت عن الإحاطة بالمطلق ، وهو الوجدان .

فهي طيعة سلسلة إذا أراد الإنسان وصف ماء البحر بزرقته ، أو الريح والتراب المتطاير معه ، مادام لم يتجاوز ذلك إلى الوجدان ؛ لأنه حينئذ يصف محسوسا واستعان باللغة لتؤدي الدور الذي خلقت له ، أما إن حرك المشهد وجدانه وسيطر على مشاعره ؛ كأنه يريد مثلا الإفصاح عن قهر تلك الأمواج ، وشراسة هذه الرياح ، لم تسعفه اللغة في الإبانة عما يحس ، ووجد نفسه مسوقا إلى كلام جديد ، يؤلفه ؛ ليبرز الرعب الذي وجد ، فيعتمد مقارنة بين البحر والحيوان المفترس ، وبين الريح وطائر وحشي أرعبه وأخافه .

فهو ألف من خياله صورة عبر بها عن وجدانه ، ومن هنا أدركنا الصلة الوطيدة بين الصورة والوجدان، فهي أداة بالغة الاتقان والوجدان والاقتدار ، فهي تنقل المتلقي إلى عالم من الرؤى رحب ، وتتركه يداف فيه ، ويوغل حسبما يهديه الخيال الموحي أو الموعز فهو : « يقرن صورة بصورة ، ويفيض على الصورة التي يراها صفات ومعاني روحية تؤثر في النفس(١) » .

والشعر فن مكتمل ، لأنه استحوذ على كل الفنون واستعان بها ؛

---

(١) الأستاذ / أحمد أمين — النقد الأدبي / ٤١ .

ليرفع القيمة الوجدانية فيه ؛ وحتى يصبح لغة العاطفة التى تخاطب الشعور فى المتلقى وتفصح عن مكنون الفؤاد عند المنشىء ، لذا حفل الشعر بالموسيقى والرسم والنحت . واستخدم الألفاظ بقدر ما فيها من إيحاء وجدانى أكثر من مدلولها الفكرى والحسى ، وبذلك حق لنفسه التفوق الوجدانى على سائر الفنون ؛ لأنه جمعها وزاد عليها ، وليس معنى ذلك أن الشعر لم يعن بالفكر ، وإنما تجافى عن التعبير المجرد والمباشر ، فالشعر ليس علما من العلوم يقدم الحقيقة كما هى ، أو يقف منها موقفا حياديا ، وإنما الشعر يقدم الحقيقة من وجهة نظر الشاعر ومن خلال إحساسه بها ؛ لأن غرضه التأثير فى المتلقى وليس إضافة معلومة إلى معارفه ، ولكى يبلغ الهدف وهو إثارة الوجدان لجأ إلى الفنون الأخرى كما أسلفنا وتفوق عليها « وأصحاب الطبع والذوق من أدباء العرب ونقادهم ... لا يختلفون فى تقديم الفن الكلامى ... فالجمال يكمن عندهم فى الصورة الخلابة ، والتعبير الذى ترف حوله الظلال وتتزاحم فيه الإشارات والإيحاءات ، حتى أن المتلقى لهذا الفن يحس إحساساً قويا أن هناك قوة غامضة ترتفع بشعوره وخياله إلى عالم يموج بالرؤى ويمور بالمشاهد التى لها فى التعبير إشارات وإيحاءات(١) » .

والشاعر بما جمع من أنماط تعبيرية مختلفة كان مضطراً إليها فى محاولته عند توصيل ما يحسه من مشاعر إلى المتلقى ، فهو يشغل نفسه دائما بربط الأشياء بعضها ببعض ، حتى يستطيع الإحاطة بعواطفه ، وحتى يتمكن من الإبانة عنها عن طريق الايحاء بها ، وتحريك خيال المتلقى ؛ ليعيش فى مثل حالته ، ويدنى إليه صورة عندما يتملاها تهزه من أعماقه ، فيلتقيان معاً — المنشىء والمتلقى — فى إحساس واحد ، متفق فى النوع والكم ومن ثم كانت الصورة فى الشعر ذات أثر بالغ الخطر ، وعظيم الأهمية ؛ لأن « أكثر الناس

---

(١) د / عبد الرحمن عثمان — مذاهب النقد وقضاياه / ٥٠ .

ليس لخيالهم قوة وحياة يستطيعون بها أن يؤثروا فى عواطف غيرهم تأثيراً كبيراً ، انما يستطيع ذلك جمهور قليل هم الأدباء ، فهم الذين يستطيعون أن يجعلوا عالمهم الخيالى حياً قويا مؤثراً أكثر مما تؤثر الحقيقة(١) » .

فالغاية المباشرة للشعر هى اللذة والمتاع وليست إبراز الحقيقة « وفى أحسن الحالات يحقق الشاعر المجيد ذلك النوع الخاص من اللذة ، الذى ينتظر أن يتأتى من القصيدة باستعمال اللغة استعمالا ملائماً(٢) » .

فللشعر لغته الخاصة به ، وهى وإن كانت لا تخرج عن إطار اللغة العامة غير أنها مؤلفة منها على نمط جديد ، وبطريقة تعين الشاعر فى الوصول إلى مبتغاه « فإن أولى مميزات الشعر هى استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائه ، فعلاقة تجربة الشاعر بلغته أوثق وأهم من علاقة تجربة القاص أومؤلف المسرحية فى العصر الحديث ، وذلك أن الشاعر يعتمد على مافى قوة التعبير من إيحاء بالمعانى فى لغته التصويرية الخاصة(٣) » .

والخيال عند تأليفه للصورة ، قد يكون الشاعر جمع أجزاءها من محسوسات ثم ألف بينها فى صورة حسية ، تدرك بجملتها وبعد تمامها إدراكاً حسياً ، وربما لها وجود على هيئتها تلك فى الواقع الخارجى ، وربما كان لبعضها وجود وليس لبعضها الآخر إدراك واقعى ، كقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

---

(١) الأستاذ / أحمد أمين — النقد الأدبى / ٣٦ .

(٢) مناهج النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق / ١٧٠ ترجمة : د / محمد يوسف نجم .

(٣) د / محمد غنيمى هلال — النقد الأدبى الحديث / ٤٠٨ .

فالسيف والرمح مما يقع تحت الإدراك الحسى ؛ وله وجود قائم بذاته ، أما أنياب الأغوال — وهو جزء الصورة — فليس له وجود ، وإنما هو حقيقة متوهمة وقد نخرج من هذه الأجزاء المجمعة صورة لاوجود لها فى العالم الخارجى على هيئتها التى قدمها لنا الشاعر ، وإن كان لكل جزئية وجود على حدة .

كقول ابن المعتز :

وكأن محمر الشقيق إذا   تصوب أو تصعــــد
أعلام ياقـــوت نشر   ن على رماح من زبرجد

فإنه تخيل أعلاما من ياقوت منشورة على رماح زبرجد ، وهذه الصورة مما لايدرك بالحس ، لأن الحس إنما يدرك ماهو موجود فى المادة ، حاضر عند المدرك على هيئات محسوسة مخصوصة به ، لكن المواد التى تركبت منها الصـــورة من الأعلام والياقوت والرماح والزبرجد ؛ كل منها محسوس بالبصر »(١) .

فالصورة أداة تعبيرية هامة تشبث بها الشعر ، ولم يتخل عنها لا فى القديم ولا فى الحديث ، فنرى مثلا : التأنق فى التعبير ، وإبراز الصورة على نحو جميل مثير ، هما الأساس الذى ينهض عليه المذهب البرناسى ... فإنهـــم يحرصون على اختيار الألفاظ لصورهم بحيث تجىء مناسبة فى إبراز الصورة ومساندة لها فى توفير الجمال ...

والرمزيون تقوم فلسفتهم على أنه لاينبغى للشاعر أن يستنفد كل مافى وجدانه ليسكبه فى وجدان الآخرين ، بل عليه أن يوحى إلى نفوسهم عن طريق الصورة والموسيقى حالات نفسية ، تثير فيها إحساساً مشابهاً لما يحس

(١) د/ محمد عبد المنعم خفاجى — أصول النقد ص ٢٣

به الشاعر ، ولعل نظير هذا أو يقرب منه فى شعرنا العربى قول الشاعر :

صبيحــــة مالى حيلة غير أننى بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيــــده بكفى والغربان فى الدار وقع

فإن قوله « والغربان فى الدار وقع » تعبير قصد به الشاعر أن يوحى به إلى نفوس السامعين حالات تثير فيها جواً جد فسيح تزدحم فيه الذكريات والصور وتتلاقى على ساحته مشاهد من الخراب والدمار اللذين خيما على منزل الحبيبة وملاعب الصبا ، وكل ذلك بدوره يثير فى نفس القارىء صوراً لاتقع بعيداً عن مثيلات التى تزدحم بها نفس الشاعر(١) .

والبيتان بهما غير الذى سبق صورة رائعة تنبىء عن الحيرة والقلق والسأم من الحياة بعد رحيل محبوبته ، نرى ذلك رأى العين فى أفعاله التى تتوالى سراعا دون هدف ، مما يدل على تفكير غير سليم ، فهو يقطع الوقت فيما لاطائل وراءه ، فهى نفس مضطربة لا تعرف لها مخرجاً مما هى فيه ، إنه يلقط الحصى ويخط فى الترب ، ثم يمحو الخط ويعيده ، فى عمل رتيب ولكنه لايستطيع الإقلاع عنه فهو مولع بذلك أشد الولع ، لأنه متشبث بالباطل ، ولنا أن نترك الصورة تتردد فى مشاعرنا وخيالنا لتوحى إلينا بانهـــزامه واستسلامه للواقع المرير الذى حاصره .

فالتعبير بالصورة هو الذى نقلنا لنعيش مع الشاعر حياته المغرقة فى التشاؤم واليأس ونحن إذ نعلى من شأن الصورة فى الشعر لانهدف إلى جعلها غرضاً مقصوداً لذاته وإنما هى وسيلة الشاعر إلى توضيح فكره وتوصيل وجدانه إلى المتلقى ، وهى بالغة الإتقان والجودة فى الوفاء بالغرض . لأنها

---

(١) د/عبد الرحمن عثمان ـــ مذاهب النقد وقضاياه ـــ راجع من:٣٦٨ إلى ٣٧١

تقوم على حقيقة الابتكار الفنى وطبيعته ، ذلك أن الفكرة تراود الفنان على أنها مادة يشكل منها فنه بعد تنسيق أجزائها تنسيقاً يلائم فكره وطبعه ، وهى فى هذه المرحلة من مراحل الابتكار تمـد فكرة مضمرة فى أعماق المبتكر ، فإذا شاء لها أن تتخلق ، أوشاءت الفكرة أن تحيا خارج نفس الفنان ، وهبها الحياة والحركة وأفرغ فيها ما يتاح له من فتنة وسحر وجمال، ومن ثم تنفصل عنه فى تعبير يلائمها ، ويفصح عن مفاتنها فى الصورة التى يختارها المبتكر دون إغراب أو ابتذال ، فإذا احتـوى التعبير أجزاء الفكرة ، واستشف المتلقى ملامحها من خلال التصوير ، فذلك هو الفن الجميل(١) »

وللأسلوب الشعرى مع ذلك جانب تاريخى ، إذ أن لكل عصر ذوقه اللغوى والتصويرى الخاص به ، وقيمه الفكرية ، ومطالبـه التى يروقه تصويرها ، ولا يمكن فى ذلك فصل المضمون عن شكله الذى يصوغه فيه الشاعر(٢) .

فالأسلوب الشعرى ، والصورة فيه هى أدق وسائله ، تفصح عن الفكر المستكن فى خاطر الشاعر ، وتنقل العاطفة التى تمور فى وجدانه وبالقدر الذى يحسها به أو أكثر حسب الأصداء المترددة منها والتى تتجاوب معها نفس المتلقى .

ولم يقصر شعرنا القديم فى استخدام الصورة على هذا النحو ، فلقـد استعان شعراء الجاهليين عندنا بالصورة للابانة عن أفكارهم ومكنون أفئدتهم ، كما سيتضح ذلك من النماذج التى اخترناها لجماعة من شعراء الجاهلية بعد أن قمنا بإلقاء للضوء على مافيها من صور .

---

(١) د/عبد الرحمن عثمان — مذاهب النقد وقضاياه ص ١٥١

(٢) د/ محمد غنيمى هلال النقد الأدبى الحديث ص ٤٠٨ .

ارتباط الصورة بالفكر والوجدان فى شعر الجاهليين :

النموذج الأول : من قول امرىء القيس(١) :

عيناك دمعهما سجال كأن شأنيهما أو شال(٢)
أو جدول فى ظلال نخل الماء من تحته مجال
من ذكر ليلى وأين ليلى وخير ما رمت ما ينال(٣)

يصور الشاعر حزنه على ليلى ، التى أبعدت فى هجره ، وجافته حتى لم

---

(١) امرؤ القيس : حندج بن حجر بن الحارث الكندى — الملك الضليل، قضى حياته فى محاولات متكررة باءت كلها بالفشل ، لإعادة ملك بيته فى كندة اليمنية .

ولقد نسجت الأساطير كثيراً من أوهامها حوله ، منها : أن أباه أنكر عليه قول الشعر فى صباه ، فأمر غلاما أن يأخذه ويقتله ويأتيه بعينيه ، فأخذه الغلام وتركه فى شعاب الجبل لظنه أن أباه سوف يندم على فعلته تلك ، ورجع إليه بعد أن قتل جؤذرا وملخ عينيه ، ودخل بهما على الملك ، ولكن حجراً غضب وهم بقتل الغلام فأخبره بالحقيقة فطلب الملك منه إحضاره ، فأحضره إليه ؛ ومنها أيضا : ما روى أن ملك الروم دعاه إلى القسطنطينية وجعله أميراً على قبائل فلسطين ليستعين به على الفرس ، ومنها : ما حكى من أنه فجر بإحدى بنات ملك الروم فأمر بقتله فى أنقره وهو فى طريق عودته ومنها : ما قيل من أنه أهدى حلة مسمومة فلما لبسها مات (راجع تاريخ الأدب العربى بروكلمان ١/٩٨ ، ٩٩) .

(٢) الوشل (محركة) : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخره ، والقليل من الدمع والكثير منه ، القاموس المحيط ٤/٦٥ .

(٣) شعراء النصرانية قبل الإسلام / ٦١ .

يعد يعرف لها طريقا ، وتلك عاطفة ، جاشت بنفسه وملأتها حيرة ويأسا ، فانسكب الدمع من عينيه غزيراً كأنه ماء يتساقط من جبل متدفقا مكتسحاً ، أو جدول يتخلل صفوف النخل ينسرب فى كل مكان ، وكان سبب ذلك ذكر ليلى الذى دهمه فأثار حسرته على ماض جميل تصرم ولا يدرى كيف يعيده ، فليلى ثوت فى مكان مجهول لا يعرف الطريق إليه ، وعز عليه نيلها والوصول إليها ، فأنطقه اليأس بحكمة من واقع التجربة ، هدهدت حزنه فاستكان إليها ، أفضل ما يصنعه الإنسان أن يتعلق أمله بالممكن .

راجع معنى الأبيات ؛ لتقف على الصورة التى رسمها الشاعر لدموعه المنسابة فى غزارة وتدفق وهى دليل حزنه ، وشدة مواجعه .

إنك واجد المشاهد تتوالى أمام بصرك : الدموع منسابة كأنها ماء يتساقط من منحدر عال وذلك ينشط سرعتها . ثم نراها فى مشهد آخر جداول بين النخيل تنساب متسللة لتتخلل كل نخلة فى كل رقعة .

وفى البيت الثالث ذكر السبب وهو ذكرياته على ليلى وهكذا ترابطت الأبيات بفضل الصورة ترابطا محكماً .

النموذج الثانى : عنترة يعاتب دهره ويشكو من جور رقومه(١) :

أعاتب دهـــراً لا يلين لعاتب وأطلب أمنا من صروف النوائب

---

(١) عنترة بن شداد العبسى ، كان ابن جارية حبشية سوداء ، تدعى زبيبة ويعد لذلك من أغربة العرب ، وكان شداد أبوه لا يعترف به ابناً ، بل عبداً له ، ولكن عنترة محا عن نفسه عار مولده ، بما أظهره من شجاعة فى حرب داحس والغبراء ، حيث اعترف به أبوه وألحقه بنسبه ، وقتل عنترة فى الغارة على بنى نبهان من طىء ، بعد أن صار أشهر أبطال العرب » .

تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/٩٠ ، ٩١ .

وتوعدنى الأيام وعداً تغـــرنى ... وأعـلم حقـاً أنه وعـد كاذب
خدمت أناسـاً واتخـذت أقارباً ... لعونى ولكن أصبحوا كالعقارب(١)

لقد صور الشاعر الدهر بإنسان بينهما ود مفقود ، فلما وقف يعاتبه على ما ألحق به من أضرار ، لم يعره الدهر أذناً مصـغية ، لأنه سادر فى مناوأة الشاعر والـكيد له ، ولك أن تتصور الشاعر وهو واقف يصرخ فى الدهر وقد استبد به الغيظ ، وأخرجه عن صوابه مع عجز كامل عن النيل من عدوه ، أو إخضاعه لمشيئته ، فهو فى حنقه يكاد يتمزق دون جدوى ، فانصرف إلى المصائب يطلب منها الامن ويطالبها بالمهادنة ، فقد نال منه الإرهاق كل منال وهو فى توسلاته وضعفه كالذليل المهان .

والشاعر بذلك قد أوفى على الغاية فى تصوير عجزه ويأســه وغيظه الذى أوشك أن يأتى عليه ، ولـكن الأيام توعده لتهدىء من روعه ، وتخفف من لوعته ، ولـكن ينصرف عنها فلا يلحف فى الرجاء ، ثم ينصرف الشاعر وهو على يقين من أنها وعود كاذبة ، وإن كانت هدهدت من ثائرته .

وفى البيت الثالث يكشف عن مصدر البلوى ومكمن الإساءة ، فقد خدم قومه وأخلص لهم على أمل أن يعينوه ، ويدفعوا عنه المحن ، ولـكنهم تحولوا إلى عقارب تنفث سمها فى عروقه لتقضى عليه .

وهكذا أعانته الصورة فى التعبير عن إحساسه بالغبن الواقع عليه ، وبالضرر الذى لحقه من أهله ، ودعتنا لنعيش معه مأسـاته بكل ما فيها من ضعف ويأس وذل وخديعة ، ولعلك أدركت ما فى الأبيات إلى جانب ذلك من ترابط فـكرى محكم أوجده أيضا التعبير بالصورة .

---

(١) د/ محمد عبد المنعم خفاجى — أشعار عنترة العبسى / ١١٢ .

النموذج الثالث : للنابغة الذبيانى(١) يقول :

كليني لهـــم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذى يرعى النجوم بآئب
وصدر أراح الليـل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب(٢)

الشاعر يعبر هنا عن فكرة هى طول الليـل ، وعن وجدان هو الهـم الذى يلازمه وينغصه الليل كله . والصـورة هنا ربطت بين أجزاء الفـكرة

---

(١) اسمه زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع بن غيظ بن مرة ابن عوف بن سعد بن ذبيان ، وهو أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم لتكسبه به وهو من الطبقة الأولى فى الشـعراء ، قال عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : إنه أشعر العرب . وقيل سمى بالنابغة لأنه نبـغ فى الشعر كبيرا ، وقيل : بل لقوله :

وحلت فى بنى القين بن جسر ... فقـد نبغت لهـــم منا شئون

عاش فى النصف الأخير من القرن السابق على ظهور الإسلام ، ونادم ملوك الحيرة المنذرين : الثالث والرابع والنعمان بن المنذر أبا قابوس ، واستوجب سخط الأخير عليـه ، لما يروى من أنه وصف يوما حسن زوجة النعمان فى شعر أثار غيرته وغضبه ، ولكن حقيقة الأمر — فيما يبدو — هى أن النابغة كان قد واصل بنى غسان فى دمشق وهم أعداء اللخميين ، فظن به الغدر وعدم الوفاء (بركلمان — تاريخ الأدب العربى ١ / ٨٨) ونحن نؤيد الرأى الأخير معتمدين فى ذلك على ما جاء فى إحدى اعتذارياته إذ يقول :

ملوك وإخـوان إذ ما أتيتهـم ... أحـكم فى أموالهـم وأقـرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبـوا

(٢) شعراء النصرانية قبل الإسلام / ٦٤٤ .

برباط محكم حيث قدمتها فى تتابع متصل ، فالكواكب متقاعسة بطيئة الحركة ترعى فى هدوء واطمئنان وكسل ، لأن الراعى لا ينوى العودة فغفل عنها ولم يقرعها بعصاه ليجمع شتاتها . ولك أن تتصور هذا الراعى الذاهل عن غنمه فتركها تأكل من صبر الشاعر الذى جلس ينتظر أوبته على غير طائل ، وهنا أسهمت الصورة فى تقديم وجدان الشاعر القلق الذى حاصرته الهموم وملأت صدره ، فالليل جمعها له من كل صقع وقذف بها فى صدره لتتراكم وتتضاعف.

فهى هموم كثيرة ومنوعة ومختلفة الأسباب ، والليل ينشر الأحزان المطوية ويجمع الهموم العازبة .

أرأيت إبداع الصورة واقتدارها ، وبراعة الشاعر فى تسخيرها لأداء فكرته والافصاح عن وجدانه .

النموذج الرابع - لعمرو بن قميئة(١) ، يقول لما تقدمت به السن يصف به هرمه وضعفه :

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عنى عنان لجامى
على الراحتين مرة وعلى العصا أنوء ثلاثا بعـــدهن قيامى
رمتنى بنات الدهر من حيث لاأرى فما بال من يرمى وليس برام !
فلو أن ما أرمى بنبل رميتها ولكنما أرمى بغير سهام(٢)

هذه صورة للعجز وضعف القوى : فالشاعر جاوز التسعين عاما من عمره ، فزايله الشباب والفتوة ، وأصبح هدفا للدهر يرميه بالنائبات ، ولم

---

(١) عمرو بن قميئة من بنى بكر بن وائل ، وهو ابن أخى المرقش الأكبر وخال المرقش الأصغر ، وجد طرفة لأمه ، روى أنه كان عاملا لحجر أبى امرىء القيس ، ومات كبير السن - الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٢٢ .

(٢) د. طه حسين - فى الأدب الجاهلى ص ٢١٤ .

يعد قادرا على ردها ولا على اتقائها .

الصورة هنا رسمت عجزه فى خطوط محددة ودقيقة ، فالتسعون عاما قد أنهكت قواه ، وهو الفرس القوى الذى كان اللجام يكبح من جماحه ، ويحد من عدوه ، قد خلع عنه عنان اللجام الآن ، حتى لا يغل خطوه شىء ، ولكن السنين قد كبلته فلم يستطع الانطلاق ، بل إنه عاجز عن النهوض .

انظر إليه وهو يعتمد على راحتيه متكئا ، وعلى عصاه ، يستعين بها ، فى القيام ، ولكن يناله التعب فينهض على دفعات ثلاث ؛ وبعد كل هذه المشقات يقوم .

أرأيت المشاهد المتلاحقة المتوالية فى كسل بين الواحدة والأخرى شكوى وأنين ، وزفرات القهر تخرج من صدره مفعمة بالألم والانهيار والعجز المستسلم والحسرة على الشباب الذى ولى وأخذ معه القوة والنشاط ؛ وتركه يواجه الدهر بضعفه ، فماذا يفعل والسهام تتوالى عليه وتقطع كل شىء فيه ؛ من غير أن يراها ! إنه امام عدو ظالم غشوم ، يهد قواه ويرميه فيصيب منه مقتلا من غير ذنب اقترفه . فالشاعر لم يبدأه بعـــداوة « فما بال من يرمى وليس برام ! » إنه فى حيرة لا يدرى ماذا يفعل لأنه عاجز عن أن يفعل وحين يشعر بمرارة الظلم والتهالك ؛ تعاوده عزته فأراد أن يثأر ، ولكن كيف ! إن عدوه لا يرميه بالسهام ؛ فلو أن بنات الدهر ضربته بالنبال لضربها بمثلها وهو لا يملك السلاح الذى تحاربه به .

إن هذه الصور أطلقت فى خيالنا مشاهد من العجز والحسرة والآلام فنتعاطف مع الشاعر .

النموذج الخامس : لأمية بن أبى الصلت(١)

يحكى أن أمية دخل على عبد الله بن جدعان ؛ وهو يجود بنفسه فقال له أمية : كيف تجدك أبا زهير ؟ قال : إنى لمدابر أى ذاهب فقال أمية :

علم ابن جدعان بن عمرو أنه يوما مدابر
ومسافر سفرا بعيدا لا يؤوب به المسافر
فقدوره بفنائه للضيف مترعة زواجر
تبدو الكسور من انفرا ج الغلى فيها الكراكر
فكأنهن بما حمين وما شحن بها ضرائر
زبد وقرقرة كقر قرة الفحول إذا تخاطر(٢)

الشاعر يمدح ، ويمدح بالكرم ، وهى صفة أصيلة فى العربى ، يطربه كثيرا أن يكون من الكرماء ، بل يبز الكرماء ، فلا يطاوله واحد منهم ، فلاجديد عند الشاعر ، فقد دارت صفة الكرم على ألسنة جل الشعراء إن لم يكن جميعهم ، والذى أصبغ على هذه الصفة الجدة إنما هى الصورة ، التى أبدع الشاعر أيما إبداع فى رسمها ، فلقد جعلنا نشاهد هذه القدور التى ملأت الفناء ، مملوءة حتى آخرها بالطعام . والنار من تحتها تزمجر ، قوية عاتية ؛ رغبة فى انضاج الطعام الذى سيقدم للضيوف .

---

(١) أمية بن أبى الصلت عبد الله بن أبى ربيعة — شاعر ثقيف ، من شعراء الطبقة الثانية ، وكان من رؤساء ثقيف ونصحائهم المشهورين ، قال عنه صاحب الاغانى : إنه كان يطمع فى النبوة . نظم قصيدة رثى فيها قتلى بدر من كفار قريش ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إنشادها (راجع بروكلمان ج ١ ص ١١٣ وشعراء النصرانية قبل الاسلام ص ٢١٩)

(٢) شعراء النصرانية قبل الإسلام ص ٢٢٢ .

تمل الصورة وتابع جزئياتها ، فقد كان الشاعر دقيقا فى رسم خطوطها فهو لم يكتف فى إثبات الكرم لممدوحه بكثرة القدور التى ملأت الفناء ، وإنما أضفى عليها من الظلال ما جعل عطاءها أكثر ، وإيحاءها أحفل فبالقدور كسور تتصاعد منها أبخرة الطعام لها أزيز وكركرة ، واللحم فى داخلها يتحرك فى تلقائية يتصادم بعضه ببعض كأنهن الضرائر التى تمسك كل واحدة منهن بتلابيب اخرى تريد أن تقضى عليها فتفلت منها وتروغ ، والزبد يعلو والأصوات متشنجة كأنها الخيول فى الوغى وقد احتدم القتال فهى تتصايح وتزمجر وقد ملأت الميدان تدور فيه بالكر والفر

إنها صورة جد فريده ، حشدت فيها عينه اللاقطة الحافظة دقيق الجزئيات مما أكسبها امتداداً واسعاً فى الرقعة المكانية ، وأوحت إلينا بقدرة الممدوح وثرائه العريض وملأتنا فرحا وابتهاجا وثقة فى صاحب الوليمة فإن الذى عنده يكفى الأعداد الوافرة من الضيفان .

اصغ معى إلى هذه الأصوات التى تطلقها القدور وامعن النظر فى البخار المتصاعد وفى اللحم المتصادم داخل القدور . إنك واجد معى اطمئناناً ولذة ومتاعاً . فلو أن الشاعر عبر عن كرم صاحبه وإعجابه بهذا الكرم تعبيراً مباشراً ما بلغ هذا الجمال الفنى الرائع الذى نحسه فى صورته تلك .

النموذج السادس : لزهير بن أبى سلمى (١) .

من قصيدته التى مطلعها :

صحا القلب عن ليلى وأقصر باطله   وعرى أفراس الصبا ورواحله

---

(١) زهير بن أبى سلمى ، واسم أبى سلمى ربيعة بن رباح وهو من مزينة ولد فى بنى عبد الله بن غطفان ، وكان ابوه قد نزل بهم وانضم إليهم ومن ثم وهم ابن قتيبة ، حيث عده منهم فى كتاب الشعراء ، ودافع عنهم زهير ←

يقول فى وصف الصيد :

إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرة ... متى نره فإننـــا لا نخـاتله
فبينا نبغى الوحش جاء غلامنا ... يدب ويخفى شخصه ويضائله
فقال : شـياه راتعات بقفرة ... بمستأسد القريان حـو مسائله
ثلاث كـأقواس السراء وناشط ... قد اخضر اس الغمير جحافله
وقد حرم الطراد عنـه جحاشه ... فلم يبـق إلا نفسه وحلائله(١)

هذه الأبيات تصور رحلة صيد ، وها هو ذا الشاعر يخرج مع رفقائه ومعهم غلامهم الذى يكـتشف لهم مكان الصيد ، ولقد رسم الشاعر صورة للغلام وللشـياة ، فجاءت لوحته معبرة بخطوطها ، دقيقة بظلالها ، واضحة الأبعاد فالغلام يحاول أن يخفى شخصه عن عيون الشياة حتى لا تفزع وتفر فهو ينقل خطوه نقلا وئيدا رشيقا حتى لا يحـدث صوتا ، ويجمع أعضاءه حتى يبدو ضئيلا منكمشاً ، فهو يريد أن يفوت على الصيد السماع والرؤية .

← بشعره فى حرب داحس والغبراء بين الأخوين عبس وذبيان ، ويروى أن لزهير سبع قصائد نظم كلا منها فى عام كامل ومن ثم سميت الحوليات ، وقد ظهر عنصر التهذيب بقوة فى شعر زهير ، قال عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . « إنه شاعر الشعراء لأنه لا يتبع حوشى الـكلام ولا يعاظل من المنطق ولا يقـول إلا ما يعرف ، ولا يمـدح الرجل إلا بما يكون فيه » (راجع تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٥/١ ، وشعراء النصرانية قبل الإسلام ٥٢٧) .

(١) الأستاذ عبد العظيم على قناوى الوصف فى الشعر العربى ٥٧٧/١ ط الحلبى سنة ١٩٤٩ .

ثم رسم صورة الشياة . إنها ترعى فى مكان مقفر ولم ينس العدد فهى ثلاث ضامرات كأنها أقواس السراء .

هذه صورة حسية تقدم مشهداً يراه الشاعر ، فأفكاره فيها تحكى الذى كان . أما ظلال الصورة الوجدانية فتكمن فى قوله « لا نخاتله » فهو لا يريد الغدر بها ولا أخذها على غرة وذلك لثقته فى نفسه واطمئنانه إلى مقدرته فى التفوق عليها وسهولة اقتناصها .

أما الغلام فإنه خائف محاذر فأخفت صوت قدميه وضاءل جسمه ؛ لأنه يخشى لوم سادته وتقريعهم إن فر الصيد بسببه .

ومن الظلال الوجدانية أيضا جعله الشياة منفردة فى قفرة قليلة العدد وضعيفة . ثلاث مهزولات قد أبعد الصائدون عنها الصغار فلم يبق سوى الذكر وأنثيين كل ذلك فت فى عضدها وجعلها منهارة متهالكة لا تقوى على المقاومة ومن هنا وقعت فريسة سهلة .

وهكذا عن طريق الصورة ، ومن خلال المشاهد التى رسمها الشاعر أقنعنا وأمتعنا . أقنعنا بحنكته وخبرته فى التعامل مع الصيد . وأمتعنا ونحن نتابع جزئيات الصورة فى إعجاب وانبهار لما حوته من وجدان متنوع وموزع فى الشاعر والغلام والصيد .

فالشاعر يدل بخبرته ويعلن ثقته فى نفسه بوضوح واتزان . والغلام فرح لأنه عثر على صيد وجاء يدلهم عليه وخائف أن يفلت إن هو تحامق وأخرجه للفرح عن هدوئه المطلوب فى مثل هذا الموطن فجاء « يدب ويخفى شخصه ويضائله » .

والصيد مرتاع وجل من انفراده فى القفرة وضياع صغاره وهكذا تعاونت مشاهد الصورة فى بث الثقة التى يريد الشاعر الإعلان عنها ويفاخر بها .

النموذج السابع : لأوس بن حجر(١) .

كأني كسوت الرحل أحقب قاربا … له بجنوب الشيطين مسارف
يقلب قيدودا كأن سراتها … صفا مدهن قد زحلفته الزحالف
يقلب حصباء المجيزة سمحجاً … بها ندب من زره ومناسف
وأخلفه من كل وقط ومدهن … نطاف فمشروب يباب وناشف
وحلاها إذا هي أحنقت … وأشرف فوق الحالبين الشراسف
وخب سفا قريانه وتوقدت … عليه من الصمانتين الأصالف
فأضحى بقارات الستار كأنه … ربيئة جيش فهو ظمآن خائف
يقول له الراءون : هذاك راكب … يؤبن شخصا فوق علياء واقف
إذا استقبلته الشمس صد بوجهه … كما صد عن نار المهول حالف
تذكر عينا من غمارة ماؤها … له حبب تستن فيه الزخارف
له ثأد ، بهتز ، جعد ، كأنه … مخالط أرجاء العيون القراطف
فأوردها التقريب والشد منهلا … قطاه معيد كرة الورد عاطف(٢)

---

(١) هو أوس بن حجر معبد التميمى ، ويكنى أبا شريح ، كان معاصراً لعمرو بن هند ملك الحيرة ، وكان مولده بالبحرين ، وطاف بشعره ومدائحه فى نجد والعراق حيث نادم ملوك الحيرة ، وكان زهير بن أبى سلمى ربيبه وراويته (راجع الشعر والشعراء لابن قتيبه ص ٩٩ ، والموشح للمرزبانى ص ٨٨ ، وبروكلمان حـ١ ص ١١٢) .

(٢) راجع ص ٢٦٣ وما بعدها — الوصف وتطوره فى الشعر العربى لايليا الحاوى دار الكتاب اللبنانى بيروت سنة ١٩٨٠) .

معانى المفردات : البيت الأول : الأحقب : الحمار الوحشى الذى فى بطنه بياض . القارب : صفة للحمار الوحشى المتشوق لأنثاه ، الشيطين : إسم موضع ←

. . . .

← مسارف : بالت حميره فهو تشم أبوالها .

البيت الثانى القيدود : الأتان الطويلة ، يقلبها : يحركها يمينا وشمالا سراتها : ظهرها ، زحلفته الزحالف : يتزحلق فوق منحدرات ملساء .

البيت الثالث . حقباء العجيزة : بيضاؤها ، سمجح : طويلة ، ندب : بقية الجرح زره : عضه ، المناسف : من نسفها بنابه أى عضها والمناسف مواضع العض .

البيت الرابع : الوقط : حفرة فى الجبل يجتمع فيها ماء المطر ، ومدهن : مثلها النطاف : بقية الماء ، يباب : جاف .

البيت الخامس : حلاها : أبعدها عن الماء ، أحنقت : ضمرت ولزق بطنها بظهرها الشراسف : أطراف الأضلاع والتعبير كناية عن الضمور .

البيت السادس : خب السفا : إرتفع التراب ، قريانه . جمع قرى وهو سيل الماء ، الأصالف : جمع أصلف ، والصمانة : الأرض الصلبة التى لاتنبت .

البيت السابع القارات : جمع قارة وهو جبل مستدق ملحوم فى السماء . الشتار : علم على جبال كثيرة ، منها جبل « الأجأ » الربيئة : الطليعة التى تتقدم الجيش .

البيت الثامن والتاسع : هذاك : هو ذاك ، يؤبن شخصا : يتتبع آثاره بنظره .

صد عن نار المهول الحالف : كانوا يحلفون بالنار ، وهى معبودة عند بعض القبائل اليمنية ، واسمها المهولة لأن سدنتها يخيفون الحالف بها .

البيت العاشر : غمازة : بئر معروف بين البصرة والبحرين، أو عين ماء .
الزخارف : ذباب صغير يطير فوق الماء ، وزخارف الماء طرائقه .

←

يشبه الشاعر ناقته بالحمار الوحشى الذى فى بطنه بياض المتشوق إلى أنثاه ، المندفع إليها بعد أن شم رائحة أبوالها ، ثم يتناسى هذا التشبيه ويتحدث عن الحمار الوحشى ، فهو يقلب أنثاه الطويلة يميناً وشمالا ، ويصعد على ظهرها الأملس ، وعن عجيزتها البيضاء ، ويداعبها بالعض فبها ندوب من آثار عضه ، لقد تركا الماء وإنفرد بها فى مكان جاف لانبت فيه ، حتى ضمرت والصق بطنها بظهرها ، وركبت ضلوعها على محالبها ، وسار مع أتانته يتطاير التراب من تحتهما ، وأخذ يتطلع إلى بعيد محاولا استكشاف موطن آخر أكثر ريا ومرعى كأن الربيئة التى تتقدم فى حزر تمس الطريق قبل أن يرتاده الجيش ؛ لتؤمن من الخطر . أخذ ينتظر ويستقصى فى البحث حتى طلعت الشمس وصده وهجها وضوؤها كما تفعل النار المقدسة — فى زعم من يعبدونها — عند مايلق فيها الكاهن بالملح فتتوهج ويخرج منها صوت مرعب، يخافه الحالف ويصد عنها ، ومازال فى بحثه حتى عثر على بئر بعيدة ، اهتدى إليها عن طريق الذباب والطيور المحومة فوقه .

ورأى التراب المبلل ، فأخذ يجذب أنثاه ويشدها ، حاثا لها على متابعته ، ليصل بها إلى الشبع والرى ، ولكنها كانت تمانع خوفا من أن يكون طريقهما مفضيا إلى القحط ، كالذى ساقها إليه قبلا ، ولكنه ينجح فى حملها على متابعته ويصل بها إلى البئر ليجدا الحمام الحوم فوقها يدور ماشاء له هواه ثم يعود مرة أخرى .

= البيت الحادى عشر : ثأد : الثرى والندى نفسه ، والتراب الجعد هو الندى اللين القراطف : جمع قراطفة وهى القطيفة المخملة .

البيت الثانى عشر : التقريب والشد أى تقريباً وشداً . المنهل : المشرب قطاه : حمامه .

نحي جانباً الألفاظ الموغلة فى الغرابة ؛ التى كان السبب فيها اختلاف الزمن والبيئة ، فتلك الكلمات كانت فى بيئتها الزمانية والمكانية ملائمة تمام الملاءمة ، يفهمها الناس وينصتون إليها ، بل وينفعلون معها .

واللغة كائن حى ، تحيا وتموت مفرداتها بالاستعمال والهجر ، فإذا دارت الكلمة على ألسنة الناس فى قرن من الزمان مثلا دبت فيها الحياة ، وأصبحت قادرة على الإيحاء بشتى العواطف والانفعالات ، أما إذا هجرها المتكلمون بها فإنها تموت وتحفظ فى متاحف القواميس ، لذا وجب على الأدباء الكبار أن يبثوا الحياة فى بعض الكلمات ، ويخرجوها من مومياء التحنيط ، لتثرى اللغة ولا يصيبها العقم والجفاف ، وتصبح اللغة غريبة عن الناطقين بها .

وغرابة الكلمة ليس للقارىء العادى الحكم المطلق فيها ، وإنما المثقف الذى أدمن الاطلاع على نتاج الأدباء ، هو وحده الذى يستطيع الحكم، لأنه إذا لاحظ دورانها بكثرة فى الأسلوب الأدبى أثبت أنها حية باقية عاملة فى فكر ووجدان المنشئين والمتلقين على السواء ؛ أما إذا لم يجدها أو كانت نادرة فى نتاجهم وسمها بالغرابة .

فنحن إذن لاشأن لنا بالكلمات فهى ابنة بيئتها ، وإنما سنتابع الصور التى رسمها والتى تتابعت فى مشاهد متلاحقة وسريعة ، لتصنع عندنا إعجابا شديداً بهذه الأتن التى قطعت رحلتها فى وعى وإصرار حتى وصلت إلى النجاة فالحمار يداعب أنثاه بعد أن يهتدى إليها من رائحة بولها ، فيصعد على ظهرها وعجزها ويعضها ، ويسحبها لينفرد بها ، فيقعان معاً عن مكان جدب وتسوء حالهما ويهد أنثاه الهزال ، ويتهددهما المصير المجهول ، وهو كرب العائلة مسئول عن سلامتها ، فيقف يستشرف على البعد فوق نشز ، باحثاً عن الماء والعشب عن النجاة ، وتبهره الشمس وتعشى عينيه ، فتصده وتحاول منعه عن النظر والتطلع ، ولكنه يقاوم ، فيذكرنا بالحالف المقبل على النار المهولة

وأخيراً يعثر على ضالته ، ويقع على إربته ، فيشد أتانته ليقربها من الهدف والأمل ، ولكنها بوحى التجربة السابقة الفاشلة تنفر منه وتتأبى عليه فيقهرها وتطيعه ويستقران آمنين هانئين .

وهكذا امتدت الصورة فى تتابع محكم . على رقعة واسعة من المكان والزمان وعلى تنوع ثر من الوجدان ، الذى تردد بين ملاعب البهجة ، وقنوط اليأس ، وعناء البحث ، وغبطة النجاة ، فأى رسام يستطيع ذلك ؟ إن الصورة الشعرية تستطيع ما لا يستطيعه عباقرة الرسم ، لأنها تجمع الأصوات والحركات والعديد من المشاهد والوجدان فى حيز ضيق ، وهذا مالا يملكه الرسام ، وإلا كيف يقدم لنا الرسام بيت امرىء القيس :

« مكر مفر مقبل مدبر معاً »

إنها حركات متناقضة ضمها البيت فى شطر منه .

النموذج الثامن : لوضاح اليمن(١) يقول :

صبا قلبي ومال إليك ميلا ... وأرقنى خيالك يا أثيلا

يمانية تلم بنا فتبدى ... دقيق محاسن وتكن غيلا

ذرينى ما أقمت بنات نعش ... من الطيف الذى ينتاب ليلا

ولكن إن أردت فهيجينا ... إذا رمقت بأعينها سهيلا

فإنك لو رأيت الخيل تعدو ... عوابس يتخذن النقع ذيلا

رأيت على متون الخيل جنا ... تفيد مغانما وتفيت نيلا

إنه يحب أثيلة ، وطرقه خيالها ليلا فأرقه ، إنها تزوره لماما ، زورة ليس فيها ريبة ، إذ تظهر له دقيق محاسنها فقط ، كالأنف والعيون والفم ،

---

(١) وضاح بن اسماعيل بن عبد كلال ابن داود بن حمد ، ديوان الحماسة لأبى تمام شرح التبريزى جـ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .

وتخفى عنه ماعدا ذلك من المحاسن الأخرى كالساقين والفخذ ، فهو مع حبها له محتشمة ، لأنها يمانية مثله ، فيهم عفة وطهر .

ومع ذلك لايريدها، أو قل لا يريد لطيفها أن يشغله عن الأمر الجلل الذى تهيأ له ، وهو حرب الأعداء ، لذلك طلب منها أن تتركه إذا رأته اتجه إلى نجوم السماء ليهتدى بها إلى الطريق ، ولا بأس أن تهيج مشاعره إذا اتجهت دابته إلى النجم سهيل ، حتى يستبسل فى القتال ، ويحقق النصر ويعود إليها ، ليستمتع بحبه . إنها إذا رأت الخيول وهى جادة فى سرعتها نحو الهدف تثير التراب من تحتها ؛ فكأنه لتتابعه واتصاله يصنع ذيلا لها يمتد من ورائها ، والفرسان على ظهور الخيول كالجن تثبتاً واقتداراً ؛ وإتقاناً لفنون الحرب.

ثم فى النهاية النصر وتحصيل المغانم ؛ ومنع العدو من أن يسترد منها شيئا . إنها صورة محكمة النسج متلاحمة الفكرة مترابطة الأجزاء ، وفوق ذلك ثرية بالوجدان ؛ راجع معى الأبيات ؛ فسوف ترى : الحب والأرق والعفة من المحب والمحبوب لأنهما من مكان واحد تطبعهما أخلاق واحدة ؛ وهنا نلمح الفخر الذى يجهر به فى خفوت ، ثم تجد شجاعته واستغراقه فى العمل الذى تناسى معه الحب واللهفة على المحبوب .

وأخيراً : لقد عبر عن سرعة الخيول بصورة رائعة حيث جعل التراب المتطاير يصنع ذيلا للفرس وراءه .

تلك لعمرى فنية متقنة يتمتع بها الشاعر فى التصوير والإبداع مكنته من كشف فكره وإبراز وجدانه .

* * *

وبعد : فلعلى أكون قد ألقيت ضوءاً كاشفاً ، على الصورة فى الشعر الجاهلى والدور الذى تقوم به ، فالموضوع يحتاج إلى بسط وإلى إطالة ، ليس بالإمكان توفيته حقه فى هذا البحث المقتضب .

وإنا لنرجو عودة إليه فى بحث آخر ، يمتد ليشمل كل جوانبه ، خدمة لتراثنا الخالد الذى يحتاج من الدارسين تقنيناً على نمط جديد ونظرة متفهمة تطلعنا على ما فيه من دور .

والله أسأل أن يهدينا جميعاً إلى الخير والصواب .

دكتور عبد اللاه محمود محروس
كلية اللغة العربية بأسيوط

هاشميات الكميت

للدكتور حمدان عبد الرحمن أحمد
مدرس الأدب والنقد

أولا : صاحب الهاشميات

تنسب الهاشميات إلى الكميت بن زيد الأسدى أعظم شعراء الشيعة فى العصر الأموى .

وقد اشتهر معه بهذا الاسم شاعران آخران من نفس قبيلته هما :

الكميت بن ثعلبة الشاعر المخضرم ، وحفيد له يسمى الكميت ابن معروف (١) .

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد مولده شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من نوابغ عصره وأغلب الظن أنه ولد سنة ٦٠ هـ لأن الرواة يكادون يجمعون على أنه ولد سنة مقتل الامام الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما — ولما كان الحسين قد استشهد سنة ستين بعد الهجرة فيكون هذا الحدث الجلل تاريخا أيضاً لميلاد الكميت .

ولا شك أن ميلاده فى هذا العام يعد من عجائب الزمن وغرائب الصدف وكأن الله — تعالى — أراد لهذا الشاعر الذى ولد عام المأساة أن يكون أكبر داعية للهاشميين يبكى قتلاهم ويدافع عنهم . ويهجو خصومهم ، يهب حياته كلها رخيصة من أجلهم .

---

(١) الفرق الإسلاميه فى الشعر الأموى للدكتور النعمان القاضى ٥٨٢ .

ولقد كان مولده فى الكوفة موطن التشيع ، ومعقل الثورة والتمرد ، وملتقى التيارات الفكرية والمذهبية ، وكان سوقها الكناسة ميداناً فسيحاً للشعراء والخطباء وعلماء الدين واللغة والكلام .

فاستقى الكميت من ذلك كله ، وتأثر به حتى صار شاعراً فحلا ، وخطيباً بارعا ، ومتحدثا لبقاً ، بل صار كما روى أبو الفرج : فقيها من فقهاء الشيعة وراوية من رواة الحديث (١)

وفضلا عن ذلك كله فقد نال حظا مما شاع فى بيئة الكوفة من جدل ومناظرة بين أصحاب الفرق الإسلامية وبخاصة فى بيئة المعتزلة الذين تتلمذ لهم زيد بن على إمام الشيعة الزيدية (٢) كما كان عالما بالنجوم مهتديا بها (٣)

فنحن إذاً أمام شخصية عظيمة ، وعبقرية فذة ، اتصلت ببيئات فكرية متعددة وتلقت معارف مختلفة المصادر والينابيع .

ولقد بجلت ثقافته الواسعة وظهرت آثارها فيما خلفه لنا من شعر فى بنى هاشم والدفاع عنهم . فلقد كانت هذه القصائد أشبه ما تكون بالمناظرات استخدم فيها الشاعر ثقافته العصرية التى اكتسبها من إمامه زيد بن على تلميذ واصل بن عطاء ، فهاشمياته حجاج وجدال فى مسألة الهاشميين تماما كما كان يفعل الحسن البصرى وتلاميذه عند مناقشته .

ثانيا : الهاشميات

(أ) التعريف بها :

الهاشميات قصائد طوال من روائع شعر الكميت . نسبت للهاشميين ، إذ

---

(١) الأغانى (١٥ — ١١٠)

(٢) خزانة الأدب (١ : ٦٩)

(٣) الأغانى (١٥ — ١١٩)

كان هوى الشاعر وحبه فيهم — يطول نفس الكميت فيها حتى يبلغ بعضها ثمانين ومائة بيت وذلك يدل على صبر وقدرة ، وفيض شاعرية ، كما يدل أيضا على استبداد الفكرة بعقل الشاعر ووجدانه فيحتفل بعرضها كل هذا الاحتفال حتى يخرجها فى معرض الفيض والإسهاب .

والكميت فى هاشمياته يدافع عن بنى هاشم ويرى أنهم أولى الناس بخلافة المسلمين ، ويندد بأعدائهم من بنى أمية ويتهمهم بالظلم والغصب والاستبداد .

وليس بصحيح ما يروى من أن الهاشميات كانت أول شعره (١) وليس بصحيح كذلك ما يروى من أن الكميت أنشد على بن الحسين الملقب بزين العابدين إحدى هاشمياته (٢) ذلك أن على بن الحسين قد توفى سنة ٩٤ هـ ولم يكن زيد بن على الذى تشيع له الكميت وكتب الهاشميات فى دعم مذهبه قد دعا لنفسه أثناء حياة أبيه .

وعلى هذا لا تكون الهاشميات أول ما قاله الكميت من الشعر وإنما سبقها له شعر كثير فى خلفاء وأمراء بنى أميه ... فقد ذكر أبو الفرج أن الكميت كان يفد على يزيد بن عبد الملك ويمدحه وأنه كان على صلة وثيقة به حتى إن يزيد كان يستشيره فى أدق الأمور فلقد أشار عليه الكميت أن يشترى سلامة المغنية التى فتن بها يزيد بعد أن وصفها الكميت له فى شعره (٣)

وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الكميت كان إلى عهد هشام بن عبد الملك وولاية خالد بن عبدالله القسرى لم يكن قد نظم هاشمياته بعد بدليل أنه كان يمدح الخلفاء والولاة من بنى أمية راضياً مختارا . فلما دعا إمامه زيد بن على إلى مذهبه فى عهد خالد القسرى . والى هشام بن عبد الملك على العراق —

---

(١) الأغانى (١٥ — ١٢١)

(٢) خزانة الأدب ١ : ٩٦

(٣) الأغانى ١٥ — ١١٧

ترك الكميت بنى أمية وعاداهم وتفرغ لمدح بنى هاشم والدفاع عن حقهم .

وأغلب الظن أن الهاشميات قد نظمت فى ذلك الوقت أعنى فى المدة التى ولى فيها خالد القسرى على العراق من ١٠٥ — ١٢٠ هـ

وأهم قصائده الهاشميات أربع بائيتان ، مطلع الأولى :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب
ولا لعباً منى وذو الشيب يلعبُ

وعدد أبياتها ثمانية وثلاثون ومائة بيت

ومطلع الثانية :

أنى ومن أين آبك الطرب   من حيث لا صبوة ولا ريب

وعدد أبياتها سبعة وستون بيتاً

والثالثة لامية ومطلعها:

من لقلب متيم مستهام   غير ما صبوة ولا أحلام

وهناك قصيدتان أخريان إحداهما بائية ومطلعها :

طربت وهل بك من مطرب   وهل تتصاب ولم تلعب

والسادسة والأخيرة :

نفى عن عينيك الأرق الهجوعا   وهم يجترى منها الدموعا

وغير هذه الست مقطوعات أخرى صغيرة .

فهى إذن قصائد طوال والذى عالج الشعر فى اللغة العربية يعرف أن القصيدة لا تتجاوز المائة بيت إلا حين تستبد الفكرة بعقل الشاعر وخياله وهواه فإن وحدة الوزن والقافية فى الشعر العربى يفرض طبع الذهن على غرار موحد ويدور بالشاعر حول أنغام موسيقية متماثلة الأوضاع .

(١) المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك ص ٨٩

(ب) مصادر الإلهام فيها

سبق أن ذكرت أن الكميت ولد بالكوفة أيام مقتل الحسين، ولقد كان لهذا الحادث المروع أثره فى بث لواعج الحزن والأسى لدى جمهور المسلمين بصفة عامة ولدى جمهور الشيعة بصفة خاصة، فراح الناس ينقمون على بنى أمية ويحقدون عليهم ويتمنون الخلاص من حكمهم .. وكلما ذكروا مقتل ابن بنت رسول الله ﷺ على أيديهم اهتاجت نفوسهم وحنقت صدورهم وثارت أفئدتهم وترقبوا يوم القصاص من الظالمين . ومن ناحية أخرى فلقد كان لهذا الظلم الواقع على أهل البيت أثره الواضح فى تعلق المسلمين ببنى هاشم وعطفهم عليهم لاعتقادهم بأنهم مظلومون قد سلبوا حقاً كان ينبغى أن يكون فيهم .

وكانت الكوفة فى ذلك الحين تغلى كالمرجل لإحساس أهلها بالذنب والتقصير فى حماية الحسين والدفاع عنه . . فدفعهم ذلك إلى الثورة والتمرد على بنى أمية ..

وكان لمولد الكميت فى ذلك الوقت من التاريخ ولنشأته بتلك المدينة الثائرة أثره فى تشيعه المبكر شأنه فى ذلك شأن أبناء قبيلته بنى أسد إذ كانوا جميعاً من الشيعة .

وكان ولاة بنى أمية على الأقاليم ينكلون بالشيعة ويذيقونهم ألواناً من الذل وصنوفا من الاضطهاد والتعذيب . . ولا شك أن ذلك كله قد حمل الكميت على التشيع والإخلاص لآل البيت . فشعر بالحب الصادق للنبى وآله من بنى هاشم ووهب حياته فى سبيل الدفاع عن حقهم فراح يبكى قتلاهم ويندد بأعدائهم ويدافع عن حقوقهم ويتحمل الأذى فى سبيلهم .. ومن أجل ذلك نستطيع أن نقول إن مصادر إلهامه فى الهاشميات هو ذلك الحب الجارف لآل البيت الذى اكتسبه الشاعر من نشأته فى مدينة الكوفة معقل التشيع ، وموطن الثورة والتمرد على السلطة الحاكمة .

ملامح الهاشميات الفنية

١ — الصياغة :

لقد كان الكميت شاعرا فحلا هيأت له ثقافته اللغوية وشغفه بالغريب جزالة فى الألفاظ وقوة فى الكلمات وفخامة فى الأسلوب فهو شاعر مقتدر مكتمل الأداة له أسلوبه الخاص فى الصياغة الواضحة التى تكتمل فيها صورة التعبير فى كثير من القوة . وهو مع قوته وفحولته يتسم أحياناً بالسهولة والوضوح والتدفق والقدرة على جلاء الفكرة التى يريد التعبير عنها ، وقد تجلت تلك الخصائص فى هاشميته فى قصيدته اللامية يقول : —

ألا هل عم فى رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الإساءة مقبل
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى
مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير الذى نتنحل(١)

فى هذه القصيدة تتجلى خصائص أسلوب الكميت وتظهر ثقافته اللغوية الواسعة ، فالألفاظ جزلة ، والأسلوب فخم ، والموسيقى ذات جرس قوى وما ذلك إلا لأن الشاعر صادق الأحساس ملتهب العاطفة ، متدفق الشعور ويتجلى ذلك دائما فى المواطن التى يحمل فيها على بنى أمية كقوله فى هذه اللامية أيضاً : —

فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم ... ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... عن الحق نقضى بالكتاب ونعدل
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل

---

(١) الهاشميات ص ١٢٣

أتصلح دنيانا جميعاً وديننا على ما به ؟ ضاع السوام المؤبل

إلى أن يقول :

فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتام حتام العناء المطول(١)

وأغلب حملاته على بنى أمية تتسم بهذه القوة فى الأساليب والعبارات. أما حين يدافع عن الهاشميين فإننا نراه يجنح إلى السهولة والوضوح كقوله :

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالنى أتقرب

بنى هاشم رهط النبى فإننى بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

وعلى هذا النسق قوله : -

بأى كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

وقوله :

فمالى إلا آل أحمد شيعة ومالى إلا مذهب الحق مذهب

وليس فى هذا الأسلوب ركاكة أو ابتذال .. وإنما هو أسلوب سهل هادىء رقيق لأن الموقف يقتضى عرض الفكرة فى جلاء ووضوح ، فعمد الشاعر إلى السهولة فى الألفاظ والعبارات .

• • •

٢ — الصورة الشعرية

الذى نلاحظه فى الهاشميات بصفة عامة أنها فقيرة إلى حد ما فى الصورة الشعرية ذلك لأن الشاعر كان يؤثر فى معظم الأحيان التعبير الحقيقى المباشر وذلك لأن الهاشميات مناظرات فى حقوق الهاشميين بل هى مقالات سياسية صاغها الكميت للدفاع عن مذهبهم ، ولذلك فقد اتهمه السابقون بأنه خطيب لا شاعر ، لأنهم لم يفهموا طريقته حق الفهم ، ولم يعرفوا أنه عمد فى

---

(١) الهاشميات ص ١٢٣ .

هاشمياته إلى طريقة جديدة تخالف المألوف من الشعر العربى ، ولم يعرفوا كذلك أن الهاشميات تمثل التجديد الذى طرأ على العقلية العربية فى العصر الاموى .

وليس معنى ذلك خلو الهاشميات من الصور الشعرية أو الجنوح إلى الخيال والتصوير ، ولكن معناه أن الكميت فى هاشمياته قد خالف المقاييس الشعرية المتوارثة التى كانت تعتمد على المبالغة والتهويل وآثر التعبير المباشر والوصول إلى الحقيقة من أقرب طريق .

ولا شك أن الكميت على الرغم مما لاحظناه فى شعره من قلة الصورة الشعرية فإنه كان فى هاشمياته قويا مؤثرا بفكرته إلى حد كبير ... ولعل من أروع الصور قوله فى بنى هاشم .

خفضت لهم منى جناحى مودة   إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

فالمعنى الذى تجسده هذه الصورة هو أن الشاعر يحب آل البيت ويخلص لهم ويكن لهم المودة ولين الجانب ولكنه لم يعبر عن هذه المعانى بشكل مباشر بل عبر عنها بتلك الصورة الجميلة فالمودة طائر له جناحان من حب ومودة وهو يخفض لهم هذين الجناحين تعبيرا عن فرط مودته وحبه .

وهذه الصورة مطروحة كثيرا فى التعبير عن معانى المودة والحب والطاعة وقد استخدمها القرآن الكريم فى مقام الحديث عن الطاعة الواجبة من الابناء نحو الآباء فى قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

ومع أن هذه الصورة متكررة ومطروقة فهى لم تفقد جمالها وروعتها فى تجسيد المعنى وتصويره .

* * *

٣ ـ المضمـــون

المضمون هو المحتوى الشعرى بكل عناصره وجزئياته، فالتجربة وأبعادها وعناصرها والأفكار التى تتألف منها والمعانى التى تتسلسل خلالها كل ذلك هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم المضمون ، ومضمون الهاشميات تجربة نفسية صادقة هى تجربة الحب العميق لآل البيت . فصاحب هذه الهاشميات وهو الكميت بن زيد شاعر شيعى ارتبط نفسياً ووجدانياً وعقلياً بفكرة التشيع. وهى فكرة تذهب إلى أن آل بيت رسول الله ﷺ أحق الناس بخلافة المسلمين من بعده ، وهى فى أصلها فكرة نقية قوامها هذا الارتباط الوجدانى بآل بيت النبى ﷺ .

والكميت فى هاشمياته يدور حول هذا الحق ويدافع عنه ويقرره فى حب صادق ، ومن ثم نراه يلجأ إلى المقاييس المنطقية والأدلة العقلية والنظرية لتدعيم هذه الفكرة .. ويمدح الهاشميين بصفات إنسانية ودينية تتسامى بهم إلى مرتبة تليق بمكانتهم فى قلوب المسلمين ، وبقرابتهم إلى النبى ﷺ ، وهو لايفعل ذلك فحسب بل نراه يحمل حملة شعواء على خصومهم يقوض مذهبهم، وينال من عدالتهم وصلاحيتهم لخلافة المسلمين .

والكميت لا يمدح آل البيت لذواتهم وإنما يعلل ذلك بقرابتهم من النبى ﷺ كقوله:

إلى النفـر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالنى أتقـــرب
بنى هاشم رهط النبى فإننى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب (١)

وهو حين يمدح الهاشميين بكرم الأخلاق يقف عند الشمائل الصريحة التى يتحلى بها أهل الشهامة والنبل فيقول :

---

(١) الهاشميات ص ٣٧

بل هواى الذى أجن وأبدى　　لبنى هاشم فروع الأنام
للقريبين من ندى والبعيدين　　من الجور فى عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النا　　س ومرسى قواعد الإسلام
والغيوث الذين إن أمحل النا　　س فأوى حواضن الأيتام
راجحى الوزن كاملى العدل فى السيرة طبين بالأمور الجسام(١)

وتلك أخلاق صريحة كلها شرف ونبل فأهل البيت فى نظره رجال بررة عدول يتمسكون بالدين ويرسون قواعده وهم فوق ذلك شجعان كرماء وهم مع هذه الصفات التى تؤهلهم للخلافة ساسة ولكنهم ليسوا كبنى أمية يرعون الناس كما ترعى الأنعام فيقول :

ساسة لا كمن يرعى رعية النا　　س سواء ورعية الأنعام
لا كعبد المليك أو كوليد　　أو سليمان بعد أو كهشام
جز ذى الصوف وانتقاء　　لذى المخة نعماً ودعدعا بالبهام
من يمت لا يمت فقيداً ومن　　يحى فلا ذو إل ولا ذو ذمام (٢)

وهذه الأبيات تمثل رأيه فى بنى أمية فهم جائرون ظالمون للرعية يعاملون المسلمين معاملة الغنم حيث يجزون ذوات الصوف ويأكلون السمينات لهذا دعا إلى الثورة عليهم ونادى بخلعهم ، وطالب بهاشمى عادل يحكم الأمة بالعدل ويغدق عليها بالخير فيقول :

فقل لبنى أمية حيث حلوا　　وإن خفت المهند والقطيعا
ألا أف لدهر كنت فيه　　هدانا طائعاً لكم مطيعاً
أجاع الله من أشبعتموه　　وأشبع من بجوركم أجيعا
ويلعن فذ أمته جهاراً　　إذا ساس البرية والخليعا

(١ و ٢) الهاشميات ص ٢٠

بمرضى السياسة هاشمى يكون حياً لأمته ربيعا
وليثا فى المشاهد غير نكس لتقويم البرية مستطيعا
يقيم أمورها ويذب عنها ويترك جدبها أبداً مريعاً(١)

والكميت فى دفاعه عن الهاشميين ينهج منهج المعتزلة فى تفكيرهم واستدلالهم على آرائهم فقد عرفنا صلته بزيد بن على زعيم الشيعة الزيدية وكان زيد هذا متأثرا بواصل بن عطاء لهذا كانت النزعة التقريرية غالبة عليه فى الهاشميات وقد لاحظ الجاحظ ذلك فى قوله « مافتح للشيعة باب الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب
يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب(٢)

وبناء على ذلك لاتكون الهاشميات مدائح لأهل البيت بالمعنى المتعارف فى المديح بل هى حجاج لهم ودفاع عن حقهم وحملة على بنى أمية، فهو يستدل لاستحقاق آل البيت وحدهم الخلافة بنوعين من الأدلة :

النوع الأول : القرآن الكريم كقوله تعالى « وآت ذى القربى حقه » وقوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »

وقوله تعالى « قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » كل هذه الأدلة النقلية نجدها فى الهاشميات كقوله :

بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم فى آل حاميم آية تأولها منا تقى ومعرب

---

(١) الهاشميات ص٣ والأغانى (١٥ — ١١٤) .
(٢) البيان والتبيين (١ : ٢٢) .

وفى غيرها آياً وآياً تتابعت
لكم نصب فيها لذى الشك منصب(١)

والنوع الثانى : الأدلة العقلية القائمة على الحوار والجدل وبراعة الحجة وقوة البرهان على نحو ماشاهد فى قوله :

بحقكم أمست قريش تقودنا … وبالفذ منها والرديفين تركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا … وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقاً على الناس واجباً … سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذى … به دان شرقى لكم ومغرب
فدى لك موروثاً أبى وأبو أبى … ونفسى ونفسى بعد بالناس أطيب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم … ونعتب لو كنا عن الحق نعتب
يقولون لم يورث ولولا تراثه … لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ولخم والسكون وحمير … وكندة والحيان بكر وتغلب
وما كانت الأنصار فيها أذلة … ولا رغباً منها إذا الناس غيب
هموا شهدوا بدراً وخيبر بعدها … ويوم حنين والدماء تصبب
فإن هى لم تصلح لحى سواهم … فإن ذوى القربى أحق وأقرب(٢)

يقول الكميت فى هذا الاستدلال العقلى: إن بنى أمية يزعمون أنهم ورثوا الخلافة عن آبائهم ، وهو ميراث باطل لأنه مغتصب فى الأصل .

فصاحب الحق الأول فيه هو النبى ﷺ وبنو هاشم أولى الناس بميراثه إذ هم آله الأدنون . . ويقرر الكميت بطلان دعوى الأمويين فهم إذ يدعون الحق فى ميراث النبى ﷺ يدفعون حق آله فى وراثته بحجة أنه لا يورث فكيف إذاً يتأتى أن يورث وألا يورث .

(١ و ٢) الهاشميات ص ٤٢ .

على أنه إذا كان لا يورث لكان معنى هذا أن الخلافة حق مشاع غير مقصور على قريش ولكان لجميع القبائل العربية المختلفة حق فيها ، ولكان للأنصار الذين آووا ونصروا الحظ الأوفر فيها .. ولما لم يكن شيء من هذا قد حدث فقد تأكد أنها ليست ميراثا شائعا بين المسلمين وإنما هي ميراث خاص بقريش ومادامت كذلك فلتقسم حسب قانون المواريث الذي جاء به الإسلام ونص عليه القرآن ولترد إلى أهلها من أيدي غاصبيهم فهي تركة الرسول وهم أقرباؤه وأولى الناس بميراثه (١)

وهكذا استطاع الكميت أن يقرر حق الهاشميين تقريرا استمده من زعم الأمويين أنفسهم بأن الخلافة لا ينبغي أن تكون إلا في قريش ويدفعون بهذه الحجة قبائل العرب والأنصار ولما لم يكن لتقديم قريش دليلا إلا القرابة من رسول الله ﷺ فإن بني هاشم يكونون أولى من بني أمية لأنهم أقرب رحما إلى النبي ﷺ .

وإلى جانب هذا الدفاع العقلي الحار عن بني هاشم وإقامة الحجة على بني أمية فإننا نلمح في الهاشميات المبادىء الأساسية لمذهب الشيعة الزيدية وكأنها وثيقة تاريخية لهذا المذهب .. فالمعروف أن الزيدية لا يخطئون أبا بكر ولا عمر ولا يكفرانهما كأكثر الشيعة بل يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ويتوقفون في الحكم على أبي بكر وعمر ويتركون أمرهما إلى الله وهذا المبدأ الزيدي نجده في الهاشميات حيث يقول الكميت :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا ألوم يوما أبا بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكا بنت النبي ولا ميراثه كفرا

---

(١) الفرق الإسلامية في الشعر الأموي للدكتور النعمان القاضي ص ٧ ٦

الله يعـــلم ماذا يأتيـان بـه   يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا(١)

وقد تضمنت الهاشميات فوق تقريرها لمبادىء الزيدية وأصولها التى دعا إليها زيد بن على عقيدة الشيعة بكل فرقها فى وصية النبى لعلى يوم غدير خم يقول الكميت مشيرا إلى هذه الوصية :

ويوم الدوح دوح غدير خم   أبان له الولاية لو أطيعـا(٢)

وهكذا نجد مضمون الهاشميات بأحسن الصفات وتقريرا لحقهم فى خلافة المسلمين ، وحملة قاسية على أعدائهم ووصمهم بالظلم وتلطيخ تاريخهم بالعار والمخازى . . وفضلا عن ذلك فالهاشميات تعد وثيقة تاريخية هامة لتعزيز مبادىء الزيدية ؟

د / حمدان عبد الرحمن أحمد

---

(١) الهاشميات ص ١٥٦

(٢) الهاشميات ص ٣

الإمام الجليل الشيخ أبو البركات الدردير ومأثوراته الأدبية

الدكتور احمد احمد منصور نفادى

فى مجال الحديث عن مأثورات العارف بالله أبى البركات الشيخ أحمد الدردير رضى الله عنه الأدبية ، لابد لنا من وقفة نتأمل فيها سيرته الطيبة ، ونتعرف عليه ، ونلقى بعض الضوء على عصره الذى عاش فيه ، كما نقف على جوانب لا بأس بها من جوانب شخصيته ، حيث إن تلك كلها أمور لا بد منها لمن يريد أن يتعرف على شخصية من الشخصيات العلمية أو الأدبية ، فالإنسان وليد عصره ، وابن بيئته ، يستمد منهما تجاربه ويستقى ثقافته ، ويتبادل مع أبنائهما من حوله عملياً التأثر والتأثير ... فمن الشيخ الدردير رضى الله عنه ! وفى أى بيئة نشأ ؟ ومن أى مورد استمد ثقافته ؟ وماذا عن تآليفه العلمية والأدبية ؟ وإنتاجه الشعرى وما خصائص شعره ؟

الشيخ الدردير :

هو أبى البركات أحمد بن محمد بن أحمـــد بن أبى حامد الدردير ، ولقب الدردير هو اللقب الغالب على الشيخ أبى البركات رحمه الله ورضى عنه كما كان الغالب على جده أبى حامد ، والسر فى اختيار هذا اللقب يرجع فى أول أمره إلى أن الجد الاعلى للشيخ خلال نزوحه بأسرته إلى حيث تقع قرى بنى عديات الآن نزل ومن معه ضيفا على رجل عربى الأصل من قبيلة بنى محارب كان يسمى بالدردير وقد عرف الرجل المحاربى المضيف بتقواه وصلاحه وكرمه الامر الذى أثار إعجاب ضيفه وجعله يتوسم فيه الخير وتصادف أن ولد لجد

الشيخ الأعلى غلام خلال استضافته الشيخ المحاربى له فسماه بالدردير تيمنا باسم مضيفه المحاربى ، وتلك رواية ينقلها الشيخ حسن بن أحمد الهوارى عمن شاهدهم من العائلة الدرديرية — وإن كان المؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتى يذكر فى «عجائب الآثار» أن الشيخ الدردير نفسه وكان مناصرا له ذكر له عن لقبه أن قبيلة من العرب نزلت ببلدهم وكان كبيرها يلقب بالدردير ، فولد جده عند نزولهم بهم فلقب بذلك ، فهو لقبه ولقب جده من قبل (١)

وعموما فإن لقب الدردير أخذته عائلة الشيخ أبى البركات رضوان الله عليه ولقبته به كما لقبت به جده من قبل ، عن قبيلة بنى محارب العربية الأصل التى يقال إن نسبها ينتهى إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار والتى نزحت من ليبيا إلى مصر وكانت تنزل على ضفاف بحر يوسف من أسيوط إلى الفيوم ، وسواء كانت عائلة الشيخ هى التى نزلت بها خلال نزوحها إلى حيث موقع بنى عديات اليوم أو كانت قبيلة محارب وفيها شيخها الدردير هى التى مرت ببنى عديات ونزل رجالها ضيوفا على أجداد الشيخ أبى البركات رحمه الله ورضى عنه فإن أهل بنى عديات عرب أصلاء ينتهى نسب جدهم الأعلى إلى عدى ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى ، فهم إذا من رهط أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد هاجر أبناء قبيلة بنى عدى إلى مصر فى خلال وزارة الصالح طلائع بن رزيك المتوفى سنة ٥٥٦ هـ للخليفة الفاطمى الفائز وكان معهم طائفة من بنى كنانة بن خزيمة ، ونزلوا بالدلتا بمنطقة البرلس ووجدوا من الصالح طلائع كثيرا من الإكرام ، كما يذكر القلقشندى فى صبح الأعشى ، وكان نزوح بنى عدى إلى هذه المنطقة التى توجد فيها قراهم المنسوبة إليهم الآن بمنفلوط فى القرن التاسع الهجرى حسبما فى

---

(١) عجائب الآثار ٢/٣٣

مخطوطة للشاعر العدوى المعاصر الأستاذ محمد علي مخلوف عن الامام أبي البركات .. حيث يقول « هذه الأسرة فرع من الدوحة العمرية على التحقيق يرجع تاريخ وجودها في البلدة إلى القرن التاسع الهجرى ، فهى تنتمى إلى بتيتة العمرى العدوى أحد الاخوة الاربعة الذين وفدوا إلى بنى عدى من ذلك القرن وكان بتيتة قاضى القبيلة كلها يفصل فى منازعها ويحكم فى خلافاتها .

وقد تربى رضى الله عنه فى كنف والده العالم الصوفى سيدى محمد بن أحمد ابن أبى حامد الدردير العمرى العدوى الذى كان عالما تقيا صالحا ورعا يشغل جميع أوقاته بمدارسة العلم وقراءة القرآن الكريم والصلاة على النبى ﷺ ، والذى كف بصره فى أواخر أيامه فاشتغل بتعليم الاطفال القرآن الكريم ، وكان فى جملة من قرأ عليه القرآن الكريم الشيخ على بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالكى ، كما قرأ عليه أيضا ابنه الشيخ الدردير إلى سورة الفتح .

ولقد تحدث الشيخ الدردير عن أبيه رضى الله عنهما فقال « وكان الوالد رحمه الله تعالى رجلا صالحا عالما متقناً للقرآن ، فقد بصره فى آخر عمره واشتغل بتعليم الأطفال كتاب الله تعالى فحفظ القرآن على يديه خلق كثير ، وكان يعلم الفقراء حسبة لله تعالى لا يأخذ منهم صرافة ولا غيرها ، بل ربما واساهم من عنده ، وكان كثير السكوت لا يتكلم إلا نادرا ووروده فى غالب أوقاته صلاة سيدى عبدالسلام بن مشيش رضى الله عنه ، وكان يبشرنى بأن أكون عالما (١)

ووالدة الشيخ هى السيدة « آمنة » بنت الحاج سلامة العلوانى العدوى الذى كان رجلا ثريا ذا تجارات مع أهل الواحات والسودان ، ولا زال

---

(١) بغية السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ص ٤

ينسب إليه فى بنى عدى طريق زراعى يعرف بطريق سلامة ، وكان رجلا صالحا رفض كثيرين ممن تقدموا لخطبة ابنتيه من ذوى اليسار ، وفضل أن يزوجهما الرجلين من ذوى الصلاح والتقوى كان والد الشيخ أحدهما .

وقد ولد الشيخ أبو البركات رضى الله عنه فى قريته بنى عدى سنة ١١٢٧هـ أو سنة ١١٢٨ هـ ، وفى القرية تلقى تعليمه الأولى على يدى والده بكتاب القرية حيث تعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب ووجهه أبوه رحمه الله لحفظ القرآن الكريم استعدادا لإلحاقه بالأزهر الشريف بالقاهرة الذى كان آنذاك المنارة الوحيدة فى مصر للعلم والثقافة ولكن إرادة الله قد قضت أن ينتقل الشيخ الوالد إلى جوار الله والتلميذ الناشىء أبو البركات فى العاشرة من عمره ، فتنهض الأم الصالحة رضوان الله عليها بكفالته ورعايته ، حافزة إياه على الجد والمثابرة فى حفظ بقية القرآن الكريم وتحصيل ما كان يحصله مثله آنذاك فى كتاتيب القرى من مبادىء العلوم حتى تتحقق فيه فراسة أبيه الصالح ويلتحق بالأزهر الشريف ليكون عالما من علماء المسلمين ، وهنا لا بد لنا من ملاحظة أثر البيئة الصالحة المؤمنة فى تكوين الإمام الدردير حيث نشأه أبواه الكريمان فى عبادة الله .

وفى الأثناء التى صاحبت طفولة أبى البركات وفجر شبابه عندما التحق بالأزهر الشريف بالقاهرة مجاورا كانت مصر تعيش فى ظـــلام دامس من الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى وهبوط المستوى الثقافى حيث تمالأ عليها المماليك والأتراك العثمانيون ينهبون خيراتها ويثقلون كواهل أبنائها بالظلم والجبروت وأعمال السخرة والضرائب الباهظة والحرمان من المشاركة فى تصريف شئون بلادهم ، كما كانت الكتاتيب فى القرى والمدن منافذ الثقافة الوسيلة التى يطل منها المستطيعون من أبناء الشعب المصرى على آفاق المعرفة ولكنها آفاق محدودة لا تكفى لإقالة الشعب من عثرة الأمية والجهـــالة ، فالاختلاف إليها إختيارى حسب الرغبة والمقدرة ، والزاد العلمى الذى يقدم

فيها لم يكن يزيد على تعلم مبادىء القراءة والكتابة وشيء يسير جداً من الحساب بالإضافة إلى حفظ القرآن الكريم ، وهذا أمر لا يقوم بإعداد إنسان إعداداً كاملا لمسايرة ركب الحياة المتطور أو تأهيله لأن يلتحق بعمل حكومي يدر عليه شيئاً من الدخل الذي يكفل له حياة طيبة ، وبالتالي لا يصلح مطلقاً لتكوين عالم جليل القدر غزير الثقافة يهرع إليه الناس إذا ما واجهتهم مشكلة دينية أو دنيوية ، ولكنه يكفي فقط لتخريج عريف في كتاب قصاراه أن يختلف إليه الصبي ، بعد رحيل شيخه عن الدنيا ، أو إمام الزاوية يصلي فيها إماما بمن حوله ويستعين على مطالب العيش بتلاوة القرآن الكريم في سهرات رمضان والمناسبات المختلفة مقابل أجر ضئيل ، فاتجهت همم الراغبين في العلم الطامحين إلى التزود بالمعرفة إلى الأزهر، والأزهر وحده إذ كان آنذاك حصن الثقافة الوحيد وحامي حمى لغة القرآن الكريم وعلومه المختلفة، منذ أن نزلت بالعالم الإسلامي نكبة التتار الذين اجتاحوا بلاده من الشرق إلى الغرب إجتياح السيل الجارف وأتوا على علماء المسلمين وأدبائهم قتلا وتنكيلا وعلى كتبهم تبديدا وإحراقا ، فلم تجد البقية الباقية من هؤلاء العلماء والمفكرين إلا الأزهر الشريف ملجأ يفرون إليه ويحتمون بأروقته وإلا مصر كنانة الله في أرضه حرما آمناً يشعرون في رحابه بالأمن والاستقرار ، فنجوا بأنفسهم إلى مصر واحتموا بأزهرها الشريف .

ومنذ ذلك الوقت ومصر تحمل زعامة العالم الإسلامي والعربي السياسية والفكرية فرجالها بقيادة سيف الدين قطز هم الذين هزموا التتار في موقعة عين جالوت بمعونة إخوانهم من أبناء الشام ، وشعبها الكريم المضياف هو الذي فتح أبواب أزهره الشريف أمام الفارين بدينهم وعلمهم ، حيث ساهموا مع إخوانهم علماء مصر في إثراء الحياة العلمية والأدبية في حلقات العلم التي كان يختلف إليها الطلاب من شتى أقطار الأرض ، في تلك الموسوعات العلمية التي تحوي كثيرا من نفائس العلم وذخائر الأدب ممثلة

أول دوائر معارف يعرفها العالم ومن أمثلة هذه الموسوعات : مسالك الابصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، ونهاية الأرب للنويرى الخ .

ولقد كان لهذه الموسوعات العلمية التى ضمنها هؤلاء العلماء معارفهم دور كبير فى إنقاذ تراث علمى هائل أوشك أن يضيع بضياع مصادره العلمية ، من جراء تخريب التتار لعواصم العالم الاسلامى وتدمير تراثها العلمى والأدبى لولا أن هيأ الله لهؤلاء العلماء فى الأزهر مكانا مطمئنا يملون فيه على طلابهم مكنون صدورهم ، وينقطعون بذلك عن التدريس مدة من الوقت مخافة أن ينسوا ما كانوا يحفظون أو يموتوا فيموت العلم بموتهم ولقد حافظ الأزهر الشريف على مر السنين على مكانته الروحية والأدبية تلك وتماسك فى شموخ المتحدى الواثق من نفسه إبان العصر التركى المظلم الذى حاول فيه الأتراك أن يجردوا مصر من تراث حضارى وثقافى لتتاح لهم الفرصة الكاملة لإحلال لغتهم التركيه محل اللغة العربيه ، وظل يقدم لابنائه الزاد الثقافى الشهى الذى يغذى عقولهم ويضىء أرواحهم ويحميهم من الانحراف فى تيار الجهالة العمياء ولم تقتصر الدراسة فيه آنذاك على العلوم اللغوية والشرعية والعقلية مثل النحو والصرف والبلاغة واللغة والأدب والفقه والتفسير والحديث والكلام والمنطق الخ ولكن الثابت الذى لا يرقى إليه شك حسبما هو مدون فى حاشية الشيخ الدمنهورى أنه كان يدرس به : علوم الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطراب والهندسة والهيئة وعلم المزاول ، وعلم الأعمال الرصدية ، وعلم المواليد الثلاثة : الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلم لسع العقرب وتاريخ العقرب والعجم(١) ولقد ظلت هذه العلوم تدرس فى

---

(١) الأزهر فى ألف عام ص ٧٧ .

الأزهر حتى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، ولكن التركيز على تدريسها العلوم الشرعية واللغوية والعقلية ، وعليه فيكون الشيخ الدردير قد تلقى هذه العلوم وهضمها وبرز فيها ولا سيما وأنه نبت صالح فى بيئة تقية نقية كانت تتوسم فيه الخير وتتنبأ له بأن يكون عالماً من علماء الأزهر الشريف .

وقد تحدث الجبرتى المؤرخ الشهير الذى كان من معاصرى الشيخ وعلى صلة به فذكر أنه رضى الله عنه قد حبب إليه طلب العلم فورد الجامع الأزهر وحضر دروس العلماء. وسمع الحديث عن كل من الشيخ محمد أحمد الصباغ ، والشيخ الحفنى أيضا وصار من أكبر خلفائه ، وأفتى فى حياة شيوخه مع كمال الزهد والصيانة والعفة ، وحضر بعض دروس الشيخ الملوى والشيخ الجوهرى وغيرهما ولكن جل اعتماده وانتسابه على الشيخين الحفنى والصعيدى(١) .

ولقد ظهر نبوغ الشيخ الدردير رحمه الله ورضى عنه وثبتت كفاءته العلمية ، كما عرف بتقواه وورعه وقوة شخصيته بحيث أصبح جديراً بأن يكون شيخا ومفتياً للمذهب المالكى ، وناظراً على وقف الصعايدة بالأزهر وشيخاً على أهل الرواق وتلك كلها كانت مناصب هامة فى ذلك الوقت ولما بنى الامير محمد بك أبو الذهب مدرسته المواجهة للجامع الأزهر سنة ١١٨٧ ١٧٧٣ كان الشيخ الدردير يجلس فيها حصته من النهار لافتاء الناس وإفادتهم بعد إملاء دروسه بالأزهر كما كان رحمه الله علما من أعلام التصوف الزهاد والذين يعبدون الله على بصيرة ، فقد ظل يتلقى مبادىء الطريقة الخلوتية وأصولها على يدى شيخه وأذن له فى الرواية عنه ، ولقد سلك الشيخ الدردير رضى الله عنه طريق التصوف وأخلص للطريقة حتى كان خليفة لشيخه فيها ولم يكن رحمه الله ممن يرون علم الشريعة قشورا وعلم الحقيقة والتصوف لبابا بل أنه رأى أن العلمين يكمل كلاهما الآخر ، فكتب فى التصوف ، كما كتب فى الفقه المالكى والبلاغة وغيرهما ، كما قام بتدريس الفقه بالأزهر الشريف

---

(١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٢ ص ٣٣ ط بيروت .

ومدرسة أبي الذهب ، وكان من تلاميذه الذين تلقوا على يديه وفازوا بإجازته إياهم : الشيخ حسن بن سالم الهوارى الذى شرف بمصاهرة الشيخ والزواج من ابنته ـ والشيخ على بن أحمد العياط ، والشيخ سليمان طايع والشيخ محمد خضر والشيخ عبد المعطى دقلية وغيرهم من أبناء بلدته بنى عدى ؛ كما تتلمذ على يديه عدد كثير منهم الشيخ عبد المنعم بن عبد الرحمن بن أحمد الجرجاوى والشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب الجرجاوى والعلامة الشيخ محمد بن حمادة بن داود الجرجاوى الشافعى والشيخ بدر الدين بن عبد الرحمن المنشاوى والشيخ رضوان الإبيارى والشيخ عبد العليم الدمنهورى والشيخ أحمد الصاوى والشيخ محمد الشنوانى الذى ولى مشيخة الأزهر الشريف ١٢٣٣ﻫ ١٨١٧ م .

وفى مجال النضال الوطنى والجهاد فى سبيل الله ضد الحاكم الظالم والمستعمر الغاشم نجد الشيخ زعيما وطنيا من الطراز الأول ، يلهب مشاعر المواطنين ويحفزهم إلى الأخذ بحقهم من ظالميهم ؛ فتلاميذه من أبناء بنى عدى الذين تلقوا على يديه العلم فى الأزهر وأجازهم للفتيا والتدريس وطلب منهم العودة إلى بنى عدى لتعليم أبناء بلدتهم ومن يقصدهم من النواحى المجاورة ، هم الذين وقفوا فى مقدمة إخوانهم العدويين لمواجهة جنود الحملة الفرنسية فى الموقعة الشهيرة التى جعل تاريخها عيداً قومياً لمحافظة أسيوط ، كما أنه رضى الله عنه عرف بمواقفه الوطنية ضد المماليك الذين كانوا يظلمون الشعب ويعتدون على كرامته ففى عام ١٧٨٦ خلال حكم مراد بك وإبراهيم بك لمصر ، نزل أحد بكوات المماليك ويسمى حسين بك بجنوده إلى منطقة الحسينية بالقاهرة واقتحموا بيت رجل يسمى أحمد سالم الجزار الذى كان نقيبا لدراويش الشيخ البيومى ، ونهبوا كل ما فى البيت من مال وأثاث فخرج أهل الحسينية بالقاهرة متوجهين إلى الجامع الازهر وهم يحملون الطبول وانضم إليهم كثير من الاهالى الذين كانوا يحملون النبابيت وفى الأزهر

استصرخ هؤلاء الثائرون الشيخ الدردير لخروج إليهم وشجعهم ووعدهم بأنه معهم ومما قاله لهم «فى غد تجمع الأهالى من الأطراف وإمارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معهم وننهب بيوتهم ، كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله ، ثم أشار عليهم بالانصراف ، ووصل خبر المظاهرة وحديث الشيخ إلى كبار البكوات فخافوا من تفاقم الأمور فلما كان بعد المغرب جاء عنده منهم نائبا عنهم ممثلا فى سليم أغا ، ومحمد كتخدا الجالى ، وإبراهيم بك وجلسوا فى الغورية ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير ، وتكلموا معه وقالوا له : اكتب لنا قائمة بالمنهوبات لنأتى بها من محل ما تكون وقرءوا الفاتحة على ذلك وانصرفوا (١) .

« المأثورات الأدبية للشيخ الدردير »

وكما عرفنا فإن الشيخ الدردير رضى الله عنه كان عالما متبحرا واسع الثقافة غزير المعرفة ضرب بسهم وافر فى جميع العلوم الدينية واللغوية التى كانت تدرس فى الأزهر الشريف فى عصره : فقد درس السيرة النبوية وكتب باستفاضة وإلمام فى الإسراء والمعراج ، كما كتب فى الفقه المالكى ، وعلم التوحيد ، والتفسير ، والحديث والبلاغة ولكنه لم يكن كغيره من بقية العلماء الذين صرفوا همهم إلى التدريس بالجامع الأزهر ، ثم ذهبوا ولم يكد يذكرهم أحد اللهم إلا هؤلاء الذين يهتمون بالبحث العلمى والتنقيب فى بطون الكتب وأغوار المراجع العلمية ولكنه رحمه الله كان مؤتمن ذلك رائدا ووصيا يملك مشاعر مريديه ويسيطر على أرواحهم وأفئدتهم بشفافية نفسه وإشراق روحه وصفاء سلوكه ومثاليته فى القدوة برسول الله ﷺ وعدم تفريقه بين علمى الحقيقة والشريعة ونظرته إلى كليهما على أنهما وسيلة تكمل كل منهما الأخرى ،

(١) كنز الجوهر ص ١٨٠

ويعين اتحادهما معا على الوصول إلى الله ، كما أنه رضى الله عنه رسم لمريديه وأبنائه الطريق السليم للسلوك الصوفى الرشيد ، .. يقول الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله : فإن الإمام الدردير لو بقى على علوم الكتب فإنه ما كان يزيد على هذا أو ذاك ممن كان فى عهده أو ممن سبقه أو أتى بعده ممن طواهم الزمان دون أن يخلدهم التاريخ ولكن أساس الخلود فى أمر الشيخ الدردير إنما هى هذه الروح التى بثها فى الاتباع والمريدين والتى ما زال يبثها فى أتباعه ومريديه ، إنها الروح الصوفية والشعور الصوفى فى الطريقة الصوفية التى مثلها ومازال يمثلها إلى الآن والتى سيستمر يمثلها ما بقيت السماء والارض ، روح الإخلاص ، روح إياك نعبد وإياك نستعين . وإذا أردنا إذن أن نلتمس شخصية الإمام الحقيقية فإننا نلتمس فى تصرفه ، وهى صوفيه متناسقة مع المحيط العام الصوفى ولكن الذى يعطيها مكانتها النفسية أنها نابعة من شيخ المالكية ومن مفتى المالكية العام القمة السيد أحمد الدردير (١) .

والجدير بالملاحظة أن علماء الازهر فى العصر العثمانى هم الذين كانوا يتولون مشيخة الطرق الصوفية وذلك ليسيروا بالتصوف الإسلامى فى طريقه الصحيح وليخلصوا الطريق إلى الله من أدعياء التصوف من أولئك الدراويش والمجاذيب الذين كانوا وما زالوا يسيئون إلى الإسلام بجهلهم وسوء تصرفهم، وجشعهم وبطالتهم ومن ثم فقد قال الشيخ الدردير فى شأنهم « ومن الناس من يزعم أنه سالك طريق أهل الله تعالى ويتزيا بزيهم ويتكلم بما يوهم الناس أنه منهم والحال أنه بطال يملأ بطنه من الطعام سواء كان حراما أو حلالا (٢) » .

والناظر فى الأدب الصوفى للشيخ الدردير — يجد أنه يتنوع بين النثر

---

(١) أبو البركات سيدى أحمد الدردير ص ٦٠

(٢) ص ٨٣ شرح الخريدة مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣٢٣ هـ

والشعر وهو إما صلوات على النبي الكريم ﷺ أو تضرع ودعاء لله تعالى أو توجيه وحث إلى ذكر الله تعالى وفعل الخيرات ومداومة الطاعات وذلك كله مقتبس من كتاب الله تعالى وسنة نبيه المصطفى ﷺ . وعندما نستعرض أدبه النثرى رضى الله عنه نجد أن فى مقدمته صلواته على النبى ﷺ التى قسمها عدد أحرف الهجاء الثمانية والعشرين والتى غلب على فقراتها السجع بحسب انتمائها إلى حرف الهجاء الذى جاءت عليه ، وهذه الصلوات تضمنها مصنف له يسمى « المورد الرائق فى الصلاة على أشرف الخلائق » ولم يكن التزام السجع يعتبر عيبا فى ذلك الوقت لأنه كان تقليدا متبعا سار عليه العلماء والأدباء فى إنشائهم وتصانيفهم منذ أن ظهر القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ والذى به وزيرا لصلاح الدين الأيوبى ، وظلت طريقته متبعة منذ ذلك الوقت حتى النهضة الأدبية الحديثة فى مطالع القرن العشرين. ومجموع هذه الصلوات على النبى ﷺ فى ذلك المصنف مائة وتسع وثلاثون صلاة تتجه فى الغالب ثلاث اتجاهات .

١ — الصلاة الخالصة على النبى ﷺ كقوله رضى الله عنه : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد ما فى الأرض والسماء — اللهم صل وبارك على سيدنا محمد عدد كل قديم وحادث(١) .

٢ — الصلاة على النبى ﷺ مع ذكر صفة من صفاته كقوله : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الناطق بالصدق والصواب ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد أفضل من أوتى الحكمة وفصل الخطاب(٢) .

٣ — الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مقرونة بدعاء الله تعالى لتحقيق خير أو دفع شر فى الدنيا أو الآخرة كقوله . وصل وسلم وبارك على سيدنا

---

(١) مجموع أوراد الطريقة الختمية / ١٩٧ ، ٢٠٣ .

(٢) / ١٩٩ المرجع السابق .

محمد وعلى آله واجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله صلاة تقينا بها شر الحساد والأعداء(١) . — وكقوله : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وأزل من قلوبنا حب الرئاسة والشهوات .

ومن النماذج الكاملة لهذه الصلوات ما ورد فى حرف الواو :

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى سيدنا محمد الذى ما نطق عن الهوى ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى ما ضل عن الحق وما غوى وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وألبسنا بالصلاة عليه لباس التقوى ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وطهرنا بها من الشكوى والدعوى وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وكف عنا بها الأسى والبلوى ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد والطف بنا ببركتها فى السر والنجوى .

فهذا النموذج يعد نوعا من أنواع الأدعية الدينية التى تنتمى إلى تيار الأدب الصوفى الذى كان الشيخ الدردير رحمه الله أحد أعلامه المبرزين فى القرن الثانى عشر الهجرى وفيه كما نرى خصائص ذلك الأدب من الرقة والبساطة المعبرتين عن الشفافية وتدفق الشعور ، فهو صورة واضحة لنفس مشرقة بنور الإيمان ووضاءة التقوى وتعبر عن الرغبة الصادقة فى تنقية الروح من دنس الشهوات فوق ما تدل عليه من الحب الكامل لرسول الله ﷺ والذى هو من أعلى علامات الإيمان ؛ لأنه من حب الله ، فالصلاة والسلام عليه ﷺ وسيلة للتقرب من الخالق جل جلاله لأنه امتثال لأمر القرآن الكريم الذى يدعو إلى ذلك فى قوله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وهذه الصلوات التى وضعها الشيخ رحمه

---

(١) المرجع السابق ١٩٨ .

الله واختار ألفاظها إنما جعلها أوراد المريدين يرددونها فى الصباح والمساء وكلما أمكنتهم الفرصة وأعانهم الفراغ ليستعينوا بها على أنفسهم وليتمكنوا من كبح جماح شهواتها وتطهيرها من أوزار الذنوب لأن الصلاة على رسول الله ﷺ تشيع فى نفس المؤمن صفاء وإشراقا يحلق بها فى آفاق روحانية طاهرة وتجعلها تتسامى عن عالم الرذائل ، فهى لمن يعرف فضلها علاج ناجح لكل العقد التى تظلم معها نفس الإنسان من هنا كان علماء التصوف رواة أوائل فى مجال الطب النفسى لأنهم بإخلاصهم وقدوتهم الحسنة كانوا ينجحون فى الأخذ بأيدى المعذبين الحائرين من أبنائهم إلى طريق الحياة السوية البريئة من جميع النزعات الرديئة فينقلبون من مجالسهم وقد صفت نفوسهم وسبحت أرواحهم فى أنوار المثل الأعلى وأصبحت كل طموحاتهم تتجه إلى الوصول إلى العالم المثالى عالم الحق والخير والجمال .

كما كان من مأثوراته النثرية رضى الله عنه ما جاء من توجيهات إلى السلوك الصوفى الصحيح فى كتابه « تحفة الإخوان فى أغراب الطريق » وفى هذه التوجيهات نجد ملامح موهبة أدبية أصيلة وملكة نفيسة طيعة يقطف صاحبها ثمار المعانى فى سهولة ويسر ويختار لها قوالب الألفاظ التى تحملها دون تكلف أو تعقيد ، ومن ثم فقد جاء فى أسلوب تحفة الإخوان أدبيا سهلا محققا للغرض فى بساطة ويسر مما يعطينا فكرة واضحة عن الدور العظيم الذى قام به علماء الأزهر فى العصر العثمانى فى تقويم الألسنة وصيانة اللغة العربية من الضياع بسبب تيار العجمة الذى يغمرها من جميع الأقطار يقول رحمه الله موجها إلى السلوك الصوفى القويم :

« إعلم يا أخى أن الطريق عزيزة لا يهتدى فيها سوى المختار وطريق القوم هى تقوى الله التى أمرنا بها فى كتابه العزيز على لسان نبيه ﷺ ورتب عليها سعادة الدارين وحصون المعارف والأسرار الإلهية والتكفل بالرزق من غير مشقة ، وحكم سبحانه وتعالى أن كل من تمسك بها أكثر من غيره

كان عند الله أكرم ... وقد أمرنا الله تعالى بأعمال باطنية تتعلق بالقلب وأعمال ظاهرية تتعلق بالجوارح الظاهرة ونهانا عن أمور باطنية وأمور ظاهرية ... فمن لم يتمسك بذلك فليس بمتق ومن تمسك بها كان من المتقين وفتح له من التقوى معرفة الله عز وجل على الوجه الأكمل عند الله تعالى والأسرار الإلهية والكاشفات الخفية(١) .

الآثار الشعرية :

وكما كانت للشيخ رحمه الله من مأثورات نثرية منها ماهو علمى بحت فى العلوم الشرعية واللغوية التى عرف بتآليفه فيها ، تناولت منها مايتعلق بالأدب الصوفى وكانت عباراته من محض تآليفه كالصلوات على النبى ﷺ ، وتوجيهاته لسالكى الطريق فى تحفة الإخوان ، فإنه رضى الله عنه ترك لنا أشعاراً كثيرة جاء فى مقدمتها ذلك الشعر الذى نظم فيه حقائق علم « الكلام » التوحيد وسماه بالخريدة البهية وكان فى نظمه لها متأثراً بما شاع فى عصره وما سبقه من تقليد نظم حقائق العلوم شعراً على نظام ماعرف فى الوزن الشعرى باسم « المزدوج » ، وهو عبارة عن منظومات متعددة القوافى فى أبياتها مع مجىء الشطرتين فى كل بيت على روى واحد أى على صرف واحد فى نهاية كل شطرة فى البيت كما كان فى مقدمة أشعاره التى تركها رضوان الله عليه تلك المنظومة التى عرفت باسم المنظومة الدرديرية فى أسماء الله الحسنى والتى نظمها

---

(١) تحفة الإخوان فى آداب الطرق : مكتبة الجمهورية العربية مصر ص ٢ وما بعدها .

(٢) كانت للشيخ الدردير رحمه بالإضافة إلى ذلك مجموعة من الأدعية النثرية التى هى مزيج من آيات بدعاء فى القرآن الكريم ودعاء النبى ﷺ ولكننى اكتفيت فى الاستشهاد بما ذكرته لضيق الحال .

رضوان الله عليه تقربا إلى الله تعالى عملا بقوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » لأنه ضمن كل بيت من أبياتها اسماً أو أكثر من أسماء الله الحسنى جل جلاله ، وعدة منظومة الأسماء الحسنى سبعة وستون بيتاً من بحر الطويل التام وأجزاؤه : فعولن ، مفاعيلن ، فعولن مفاعلن مرتان فى كل بيت وهى منظومة شهيرة فى جميع الأوساط الصوفية ولا سيما أبناء الطريقة الخلوتية فهم يتبركون بتلاوتها فى اجتماعاتهم الروحية كورد من الأوراد الثابتة ، ويقول عنها الشيخ الصاوى المريد الأول للشيخ « منظومة أسماء الله الحسنى لشيخنا وشيخ مشايخنا إمام العصر أبى البركات عديمة النظير لاحتوائها على الدعوات الجامعة والأسرار اللامعة ، وهى آخر العلوم الإلهية التى ظهرت على لسانه ، وقد ألقيت عليه فى ليلة واحدة فقام من فوره وكتبها وأخبرنى أنه يقرؤها فى اليوم والليلة ثلاث مرات » .

وقد بدأها رضى الله عنه بالتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وبأسرارها التى أوجد بها المكنونات دنيا وأخرى ثم ختمها بالصلاة على النبى ﷺ التى هى سبب فى إجابة دعاء الداعين ... يقول رضى الله عنه فى منظومته :

تباركت يا ألله . ربى لك الثنا	فحمداً لمولانا وشكراً لربنا
بأسمائك الحسنى وأسرارها التى	أقمت بها الأكوان من حضرة الفنا
فندعوك يا ألله يا مبدع الورى	يقينا الهم والكرب والعنا
ويارب يا رحمن هبنا معارفا	ولطفاً وإحسانا ونوراً يعمنا
وسر يارحيم العالمين بجمعنا	إلى حضرة القرب المقدس واهدنا

ومنها أيضاً :

ويابادىء احفظنا من الخلق كلهم	بفضلك واكشف يامصور كربنا
وبالغفر ياغفار محض ذنوبنا	وبالقهر يا قهار اقهر عدونا
وهب لى أيا وهاب علماً وحكمة	وللرزق يارزاق وسع وجد لنا

وبالفتح يافتاح عجل تكرماً وبالعلم نور ياعليم قلوبنا

إلى أن يقول فى ختامها :

وصل وسلم سيدى كل لمحة على المصطفى خير البرايا نبينا
وصل على الأملاك والرسل كلهم وآلهم والصحب جمعاً وعمنا
وسلم عليهم كلما قال قائل تباركت ياألله ربى لك العلا

ومع أن هذه المنظومة استغاثة يجأر بها العبد الصالح إلى ربه من شر الدنيا وبلائها ويهبه ماينفع به أحبابه الصالحين المقربين من خيرى الدنيا والآخرة فإن الشيخ يرجو فوق ذلك الفضل أن يمنحه الله تعالى من القرب والصفاء وفيوض التجليات مايستطيع أن يفهم به أسرار تلك الأسماء الحسنى فيصبح عبداً ربانيا يحظى فى حضرة القدس بصحبة أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا ، وتلك الدرجة من المحبة والعشق والطموح إلى الاستغراق فى أنوار الجمال الإلهى والتطلع إلى مشاهدة تجلياته والارتشاف من رحيقها كانت قصارى أولئك المتصوفين الأخيار الذين كان الشيخ الدردير رحمه الله قطبا من أقطابهم وعلما من أعلامهم .

ولم يكن الشيخ رحمه الله بدعا فى نظم الشعر الصوفى المعبر عن حرقة الشوق واللهفة إلى الانغماس فى جمال المحبوب الأسمى جل جلاله والحظوة بقربه والتفانى فى سبيل الفوز بهذا القرب ، فهناك كثير من هؤلاء الأتقياء الأصفياء الذين سخروا شاعريتهم فى التعبير عن هذه المشاعر السامية والطموح إلى الفوز بهذه الآمال الكبار منذ صدر الإسلام ولعل أول ما يطالعنا فى ذلك قول الصحابى الجليل خبيب بن عدى وقد أخذه المشركون ليصلبوه :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وقول الصحابى الجليل عبد الله بن رواحة وهو يحث نفسه فى غزوة مؤتة على العجلة إلى لقاء الله شهيدا كصاحبيه زيد وجعفر :

يانفس إلا تقتلى تموتى ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلى فعلهما هديت

ومثل قول ذى النون الذى توفى سنة ٢٤٥ ﻫ بمنطقة البساتين بالقاهرة ويقال إنه دفن مع عمرو بن العاص رضى الله عنه فى قبر واحد وهو أول من تكلم عن الأحوال والمقامات وفسر شطحات الصوفية وإشاراتهم :

أموت وما ماتت إليك صبابتى ... ولا قضيت من صدق حبك أوطارى
مناى المنى كل المنى أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إفقارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى ... وموضع آمالى ومكنون إضمارى
تحمل قلبى فيك مالا أبثه ... وإن طال سقمى فيك أو طال إضرارى

وغير هؤلاء كثيرون جدا لايكاد يأتى عليهم الحصر ولا يتسع لهم مثل هذا المجال فقد ازدهت بهم عصور الإسلام المختلفة وشرفت بهم أقطاره ، وكان ممن وجد منهم فى عصر الشيخ الدردير الشيخ مصطفى البكرى المتوفى سنة سنة ١١٦٢ الذى يقول معبرا عن سكر المحبين وتذللهم :

اشرب واطرب لاتخش سوى ... إياك تمل عن ذا النهج
كم أنت كذا ، لم تصح ، أفق ... وإلى الابواب فقم ولج
مولاى أتيتك منكسرا ... وبغيرك شوقى لم يهج
وأتيت إليك خليا من ... صومى وصلاتى مع حججى
وكذا علمى وكذا عملى ... وكذاك دليلى مع عججى
لاأملك شيئا غير الدمع مخافة ... أن يفشى وهجى(١)

---

(١) مجمع أوراد الطريقة الخلوتيه ص ٢٧٦ .

وكذلك الشيخ عبد الله الشبراوى الذى نظم قصيدته البائية فى مديح النبى ﷺ بعد زيارته لقبر النبى ﷺ ، ومن المعروف أن المدائح النبوية كانت من أهم الأغراض التى اتجه إليها شعراء الصوفية تقربا إلى الله تعالى بحب نبيه الكريم وآل بيته الأطهار يقول الشبراوى :

مقلتى قد نلت كل الارب ... هذه أنوار طه العـــربى
هذه أنوار طه المصطفى ... خاتم الرسل شريف النسب
يانبى الله مالى حيـــلة ... غير حبى لك يا خير نبى
عظم الكرب ولى فيك رجا ... فيه يارب فرج كربى
وتدارك ما بقى لى فلقد ... ضاع عمرى فى الهوى واللعب

كما يقول الشيخ الحفنى شيخ الطريقة الخلوتية الذى أخذ عنه الدردير أصولها :

ضل الغرام الصعب ومعه ذمه ... حيران توجد الذكرى وبقدميه
واسمع به بملاقات علقن به ... لوا طلعت عليـــه كنت ترحمه

وقد قلد الشيخ الدردير فى النظم فى أسماء الله الحسنى كثير ممن جاءوا بعده ومنهم تلميذه فى الطريق الشيخ أحمـــد الشرقاوى التى عرفت له منظومته التى مطلعها :

يارب بالحسنى من الاسماء ... أشرق شمس القرب فى سمائى
وافتح صميم القلب يا ألله ... وامزجه بالتوحيد يا مولاه

والتى خالفت منظومته الشيخ فى وزنها حيث جاءت من بحر الرجز التام المزدوج الذى تعددت فيه قوافى الابيات وكانت عدتها مائة بيت وستة أبيـات .

الخريدة البهية للشيخ الدردير :

وهى من الشعر العلمى الذى نظمت فيه حقائق العلوم وقد نظمها الشيخ رحمه الله فى حقائق علم التوحيد بفروعه الثلاثة الإلهيات والنبوات والسمعيات ولكن الحديث عنها لسببين : أولها أنها نوع من الإنتاج الشعرى للشيخ وثانيهما أنه غلبت على أبياتها النزعة الصوفية التى تلمس من خلال التعبيرات ومن ثم فهى من الشعر العلمى المتأدب إذا صحت هذه التسمية وهى واحد وسبعون بيتا من بحر الرجز المزدوج وفيها يقول :

وينطوى فى كلمة الإسلام ماقد مضى من سائر الأحكام
فأكثر من ذكرها بالأدب ترقى بهذا الذكر أعلى الرتب
وغلب الخوف على الرجاء وسر لمولاك بلا تنائى
وجدد التوبة للأوزار لاتيأسن من رحمة الغفار
وكن على آلائه شكورا وكن على بلائه صبورا
وكل شىء بالقضاء والقدر وكل مقدور فما عنه مفر
فكن له مسلما كى تسلما واتبع سبيل الناسكين العلما
وخلص القلب من الأغيار بالجد والقيام فى الأسحار
والفكر والذكر على الدوام مجتنبا لسائر الآثام

رحم الله الشيخ الدردير رحمة واسعة وجزاه عن العلم والإسلام خير الجزاء .

دكتور أحمد منصور نفادى
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

الدعوة إلى السلام

فى شعر زهير

دكتور على محمد على طلب

عرف عن العرب فى الجاهلية أنهم ذوو حروب لاتهدأ وصدام لايفتر ومعارك لاتنقطع ، فكلما غمدت السيوف فى قربها عادت لتسل من جديد ، وكلما هدأ أوار الحرب عاد ليثأر من جديد ، وكلما غمدت نيران المعارك عادت لتشتعل من جديد ؛ فهم بينما ينعمون بحياتهم من لهو وقصف إذ يفاجئهم العدو فيخرجون مدججين بالسلاح ليذودوا عن حياضهم ويأمنوا غائلة عدوهم ويردوا كيده إلى نحره ويدافعوا عن أرضهم وحريمهم حتى تنتهى الحرب إما بالنصر أو الهزيمة ، فالحرب سجال بينهم ، ومن ثم يفتخر المنتصر بنصره على ملأ الدنيا وسمعها ، ويتيه إعجابا وفخرا ؛ فقد حافظ على على أرضه وحمى أهله وذويه ودافع عن عرضه وحريمه ...

هذه كانت حياتهم ، وكانت العصبية القبلية قائمة على أشدها ؛ فإذا استنصر أحدهم بقومه نصروه — ظالما كان أو مظلوما — ، ومن هنا كانت الحروب تشتعل لأتفه الأسباب دون روية أو تفكير .

كذلك كان للبيئة الصحراوية القاحلة أثر كبير فى اصطدام القبائل ببعضها ؛ ففى سبيل الحصول على القوت تتعرض القبائل للهجمات المتتالية من قبائل أخرى ، وتدور المعارك الطاحنة والحروب التى تفنى الحرث والنسل ، والتى تقضى على الأخضر واليابس ، ولاطائل منها إلا الهلاك والدمار .

ولكن على الرغم من هذه الطبائع النهمة للدماء . وتلك الهمجية الزائدة كان هناك قوم من الناس جندوا أنفسهم للدعوة إلى السلام ، وبذل الغالى

والرخيص فى سبيل دعمه والحفاظ عليه والقضاء على الفتن والحروب التى لاتنتهى على ثرى الجزيرة العربية ، ونشأ هؤلاء القوم (وهم قلة) على حب السلم وبغض الحرب والقضاء على أى سبب يوصل إليها ، وهم يعلمون علم اليقين أن الحرب لاتبقى ولاتذر ، ولا تترك شيئاً إلا أتت عليه وتركته هشيما تذروه الرياح فتكون شرا مستطيرا ووبالا خطيرا وهلاكا عاجلا وفناء مؤكدا ، وحسبهم أنهم يحاولون الإصلاح مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا سواء نجحوا فى مسعاهم أم أخفقوا فى دعوتهم فى هذا المجتمع المضطرب المشتعل بنار العصبية والهمجية وأخلاق الجاهلية الأولى ...

هؤلاء القوم يذكرهم لنا التاريخ العربى بفخر وإعزاز وتمجيد بالغ وتخليد دائم ، وعلى رأس هؤلاء الداعين إلى السلام شاعر السلام (زهير ابن أبى سلمى)(١) ...

نشأ شاعرنا هذا فى بيئة شعرية أثرت فى شعره ، فخرج إلى الوجود صافياً عذبا رائقا ، نشأ فى بيئة خلقية هيأته لقول لون خاص من الشعر ؛ ألا وهو شعر الأخلاق والتسامح ، والعمل على إصلاح ذات البين بين الناس ، وإقرار السلام فى ربوع الجزيرة العربية ... أضف إلى هذه النشأة الخلقية الفاضلة ماكان لأستاذيه العظيمين (بشامة بن الغدير وأوس بن حجر) من أثر عظيم فى غرس هذه السجايا العالية فى نفسه ؛ فقدكان بشامة خاله أو خال أبيه

---

(١) ليس فى العرب سلمى بضم السين غيره ، وأبو سلمى هو ربيعة بن رباح بن قرة بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن برد بن لاطم بن مزينة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر وآل أبى سلمى حلفاء فى بنى عبد الله بن غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان بن مضر (شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٩٩) .

وكان من سادة غطفان ، وكان أوس (زوج أمه) من علية القوم وكان متأثراً بهما إلى حد كبير (١).

كما أننا لا ننسى جانب الدهر وفعله فى نفسية زهير ؛ فلقد شهد حوادث الزمان وتقلب الأيام ، وماجره التشاحن والتفكك من ويلات ونكبات ، ولقد عركته الأيام وصهرته الأحداث ، وشهد بعينيه مصرع البغى والعدوان فآلى على نفسه أن يعمل على إزالة جانب الشر من نفوس الناس بشعره الذى يفوح شذاه فى أرجاء الدنيا حكمة وخلقا وخيراً وجمالا .

وخيرشاهد على قولنا هذا تلك المعلقة المشهورة التى قالها زهير بعد الصلح بين عبس وذبيان فى حرب (داحس والغبراء) ، وفيها يمدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان لتحملهما ديات القتلى لفض النزاع ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير (٢) .

هذه المعلقه الخالدة التى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تـكلم بحـومانة الدراج فالمتثلم (٣)

فقد ضمت فى ثناياها الوسائل التى استخدمها زهير فى الوصول إلى هدفه السامى وهو إقرار السلام أو محاولة إقرارة بين قومه ، والعمل على إزالة شقة الخلاف بين القبائل المتحاربة .

ونطرح المعلقة على بساط البحث (٤) فنجدها تحدد هذه الطرق والوسائل

---

(١) انظر الأدب العربى وتاريخه للأستاذ محمد هاشم عطية ص ٢٠٣ ط مصطفى الحلبى القاهرة ١٩٣٦ .

(٢) انظر مهذب الأغانى للأستاذ محمد الخضرى ١٠٨/١ ط مصر .

(٣) دمنة الدار : أثرها . حومانة الدراج والمتثلم : موضعان .

(٤) انظر معلقة زهير فى شرح المعلقات للزوزنى ص٧٦ ومابعدها ط =

التى سلكها زهير فى دعوته ، ونرى — بعد أن نطرح المقدمة الغزلية جانباً — أنها ضمت فى ثناياها طرقا أربعة اتبعها زهير فى دعوته إلى السلام :

أولا : مدح الساعين إلى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان بأبلغ مدح وأجل وصف حيث يقول :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبــزل مابين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على أى حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً ... بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيهـا من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد وغــيرها ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغانم شـــتى من إفال المزنم
تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ... ينجمها من ليس فيهـــا بمجرم
ينجمها قـــوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم(١)

= السعادة القاهرة ١٩٢١ ، القصائد الشعر شرح الخطيب التبريزى ص ١٠٠ وما بعدها ط السلفية بالقاهرة ، جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ص ٦٧ وما بعدها ط الرحمانية القاهرة ١٩٢٦ .

(١) مفردات الأبيات : السعى هنا : العمل لإصلاح ذات البين . تبزل : تفجر . غيظ بن مرة : من ولد عبد الله بن غطفان . البيت : الكعبة الشريفة . جرهم : ولاة البيت قبل قريش ، وأباهم الله لبغيهم وإنتهاكهم حرمة البيت . السحيل : الخيط المفرد . المبرم : المفتول وهما كنايتان عن الرخاء والشدة . منشم : أمراة من خزاعة يضرب بها المثل فى الشؤم . العقوق : قطيعة الرحم . المأثم : الإثم . إفال : جمع أفيل وهو الفيصل . مزنم : معلم . الكلوم : الجروح . المحجم : وعاء يتلقى فيه الحجام الدم عند الفصد .

فى هذه الأبيات يمدح زهير الساعين فى الصلح بين الفريقين المتشاحنين ، وهو بمدحه هذا يمدح من يستحق المدح — وهذا شأنه دائماً — فلقد اشتهر بأنه لم يمدح إلا من يستحق مدحه ، ولقد شهد له بذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث يقول : « كان لا يمدح أحداً إلا بما هو فيه »(١) ، ولقد أضفى زهير فى هذه الأبيات السابقة على هذين الممدوحين صفات النبل والكرم والمروءة والنجدة ، فهما السيدان ؛ ولا سيد سواهما حيث حقنا الدماء ورأبا بكرمهما صدع الإنشاق والتفرقة والانفكاك ، وأدركا عبسا وذبيان بعد أن تهيآ للفناء والخراب والهلاك ، وهذا سر العظمة فيها ؛ فقد استباحا مالهما فى سبيل هذا الغرض الإنسانى النبيل ، فسال هذا المال فضلا وإحسانا وصونا للأهل وحفاظا للعشيرة على الرغم من أنهما لا ذنب لهما فى هذه الحرب ولا جريرة ، فهما بحق جديران بهذه الصفات التى ذكرها زهير وهذا المدح الذى توج به هامتها ، ومن ثم فقد عرض للناس صورة من صور الكرم النادر ليقتدى الناس بهما فى كل فعالهما ، فيخرج من بين الأشرار أناس سمحاء كرماء يدافعون من الحق ويعملون من أجل الخير والسلام ، وسيكون جزاء العاملين فى كل النفوس إكبارا وإجلالا وتعظيما وإحتراما .

ثانياً : ذم الحرب ووصفها بأفظع وصف ، وذكر ماتجره من خراب ودمار وقضاء على الضرع والنسل الأخضر واليابس ... ها هوذا يتوجه إلى الأحلاف الذين تكتلوا وأشعلوها حربا ضروسا لا هوادة فيها ، وأضرموا نار الحرب فأحرقتهم فى أتونها ، ودمرتهم بنارها ووقودها ؛ فيخاطب هؤلاء القوم برسالة قوية فيقول :

فمن مبلغ والأحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٤٤ ط دار التراث العربى للطباعة القاهرة ١٩٧٧ .

فـلا تـكتمن الله مافى نفوسكم ... ليخفى ومهما يـكتم الله يعــلم
يؤخر فيوضع كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموهـا فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالهـا ... وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم
فتنتج لـكم غلمــان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لـكم مالا تغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم(١)

ما أشد هذه الحرب وماأعظم ويلاتها ونـكباتها، كما وصفها لناهذا الرجل المجرب المحنك الذى صهرته الأحداث وعركته الحياة وعلمته الايام ؛ فهو فى هذه الابيات يخاطب (أولا) هؤلاء الاحلاف ويحذرهم مغبة كتمان الشر مع إظهار الخير ، فلا بد أن تظهر الحقيقة للناس عيانا بيانا ، إن عاجلا فى الدنيا أو آجلا يوم يقوم الناس لرب العالمين فى يوم الحساب ، وسيقع عليهم الانتقام الأليم فى الدنيا والآخرة .

ثم يعرج الشاعر بعد ذلك على وصف الحرب فيصفها تارة بأنها نار قابلة للإضرام والاشتعال تأكل ما يلقى فيها من حرث ونسل ، ويصفها مرة أخرى بأنها رحى تطحن ما يأتى تحتها طحناً شديدا ، ولا تخلف وراءها

---

(١) المفردات . الاحلاف : جمع حليف المرجم : المظنون الذى لا يقين فيه . ضريته : هجته . الثفال : جلد يبسط تحت الرحى عند الطحن . تلقح : من لقحت الناقة إذا ألقحها الفحل . كشافا : كشفت الناقة أى أن تلقح حين تنتج . تتئم : تلد توأمين .

غلمان أشأم ؛ غلمان شؤم . أحمر عاد : هو عاقر الناقة لأن ثمود يقال لها (عاد الأخيرة) كما يقال لقوم هود (عاد الأولى) . القفيز : إسم مكيال .

إلا الدمار والفناء والهلاك ، ولا شك فى ذلك فهى تنتج التوائم المشوهة : وترضعهم الوبال وتذيقهم النكال وتفكك الأوصال ، ومن ثم يكونون كأحمر ثمود حين جر الوبال على قومه .

وهذا — كما نرى — وصف رائع للحرب يشد الأسماع ، ويصل للقلب ويملك الفؤاد ونرى فيه هول المعركة وجحيمها ووبالها ، وينقل إلينا صورة صادقة ومعبرة للحرب ونتائجها ، ولا يجد المرء منا إلا أن يحنى هامته أمام عظمة هذا الرجل وقوة بيانة وروعة شعره ، ولا ريب فى ذلك ، فقد أصاب المحز وبلغ شأو الكمال فى وصف هذه الحروب الطاحنة وما تجره من ويلات وخسائر ، ولا إخال من يسمع هذه الأبيات إلا أن ينفر من الحرب ويجزع من هولها ويتفادى نارها ولهيبها ، وهو بهذا يدعو إلى السلام حيث يعرض الحقيقة العارية المنكرة للحرب والتناحر على الناس جميعا ، ويبينها واضحة جلية ليعتبر من يعتبر ويتعظ من يتعظ .

ثالثا : ذكر الشاعر فى معلقته قصة حصين بن ضمضم (١) — هذا الرجل الذى أظهر الصلح وأخفى عن الناس سريرة كلها شر وغدر وخيانة ، وانتهز فرصة سنحت له فاعتدى على رجل من أعدائه فقتله لما كان يكنه من ألم لقتل أخيه فى بنى عبس ، فجر على قومه النكال والوبال .

وهذه القصة لا يهمنا أن نسردها وإنما يهمنا منها ما جره هذا الغادر على أهله وعشيرته ؛ فلقد أضمر الشر وحده ، وعاد عليه وعلى غيره ... وفى ذلك زهير مصورا أحداث هذه القصة فى جمال خلاب وسحر أخاذ مع قوة فى التصوير وإحكام فى التعبير :

---

(١) هو ابن عم النابغة الذبيانى لأن النابغة هو ابن معاوية بن ضباب بن جابر وحصين بن ضمضم بن ضباب بن جابر (انظر شرح القصائد العشر للتبريزى ص ١١٥) .

لعمرى لنعم الحى جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحاً على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتجمجم
وقال سأقضى حاجتى ثم أتقى عدوى بألف من ورائى ملجم
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم
لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم
جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاً وإلا يبد بالظلم يظلم
رعوا مارعوا من ظمئهم ثم أوردوا غماراً تسيل بالرماح وبالدم
فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلأ مستوبل متوخم
لعمرك ما جرت عليهم رماحهم دم ابن نهيك أو قتيل المثلم
ولا شاركوا فى القتل فى دم نوفل ولا وهب منهم ولا ابن المخزم
فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه صحيحات مال طالعات بمخرم (١)

هذه عاقبة البغى ، وتلك مغبة الغدر والخيانة ، فقد شد هذا الغادر وحده وانتقم لنفسه وثأر لأخيه ، ولكنه أثارها حمية فى النفوس وعصبية هوجاء فى الإقدام على الحروب ووبالها ؛ فقد هب قومه يذودون عنه ، ويقفون معه وقفة المدافع ، وما أدراك ما هذه الوقفة ؛ لقد جرت عليهم النكال والوبال ، فردوا نفوسهم الظامئة إلى الدماء وهم لا يكتفون بورد واحد

---

(١) المفردات : جر عليهم : جنى عليهم . لا يواتيهم : لا يوافقهم . الكشح : الجنب . مستكنة : نية سيئة . يتجمجم : يحجم . ألف ملجم : يريد ألف فالاس ألجموا خيولهم . شاكى السلاح : تام السلاح . مقذف : ضخم . اللبد : جمع لبدة وهى ما تلبد على كتفى الأسد من الشعر . الغمار : جمع غمر وهو الماء الكثير . الظمء : المراد المدة بين الحربين . مستوبل متوخم : مستثقل مرذول يريد أنهم وجدوا عاقبة الحرب وخيمة . يعقلونه : يدفعون ديته ، والعقل : الدية . المخرم : منقطع أنف الجبل والطريق فيه .

بل كلما تعطشت نفوسهم من جديد أوردوها غمار الحرب ، فذاقوا الوبال تلو الوبال ، والدمار تلو الدمار ، وهذه هى النتيجة الحتمية للحروب ، ولولا أولئك النفر الذين تبرعوا بأموالهم ينفقونها رخيصة فى سبيل حقن الدماء وحفظ الأنفس والأرواح لما بقى على ظهر الأرض أحـــد من الفريقين المتخاصمين ... فقد ساق هؤلاء القوم إبلهم وتحملوا ديات القتلى، وماجرت رماحهم عليهم هذا العمل ، ولا شاركوا فى قتل الأبرياء وغير الأبرياء ، ولـكنها الحمية حمية الجاهلية أوقدها هذا الأحمق فجرت على العشيرة كلها حربا لا هوادة فيها واصطلى الجميع بنارها ، وأفنت الأنفس والأموال ، وزهير وهو يذكر هذه القصة المؤثرة ، وهذه الفعلة المنكرة يريد أن ينزع من النفوس هذه الحمية التى مؤداها (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) على فهم الجاهليين لها ، ويبين للناس نتيجة هذه الحمية الجاهلية من سوء عاقبة وعظيم خطر ، ومن ثم يدعو الناس إلى سواء السبيل والأخذ على أيدى القادرين والمخادعين وتجار الحروب ؛ حتى يتحقق السلام وتســـود المحبة والألفة والتسامح .

رابعـاً : حث فى معلقته الناس على مكارم الأخـــلاق والتحلى بأشرف الخصال الطيبة والسجايا الـكريمة والشمائل الفاضلة الأصيلة بما أورد لهم من حكم ساميه وعظات بالغة ... أوردها لتـكون مسك الختام بعد طول التجارب وتتابع الأيام وأحداث الزمان ؛ فهى نسج الأحداث ومرآة الدهر وصحيفة الحياة بما فيها من شقاء وهناء وعز وذل وبؤس ونعيم .

ها نحن أولاء نطرب سوياً حينما نسمعه يشدو . بشعر أرق من الهواء وأسمق من الجوزاء ؛ فهو السحر الحلال والدواء الناجح من الداء العضال فهو يقول .

سئمت تكاليف الحياة. ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكنى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء يسلم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالى ركبت كل لهذم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم(١)

هذه أبيات رائعة غنية عن الكلام والتعليق عليها ، فهى كالبدر المنير يسطع على الكون فيزيل ظلمته ويبدد غياهبه ، ويهدى الحائرين فى متاهات الليل إلى فجر ساطع وإلى أقوم طريق وأحسن سبيل ... وحقاً

(١) المفردات : تكاليف الحياة : مشقاتها . لا أبالك : عبارة لا يقصد بها هنا الذم وإنما تجرى مجرى التأكيد . عم : أعمى . العشواء : الناقة التى لا تبصر بالليل . الخبط : ضربها بيديها على غير هدى . المصانعة : المداراة . يضرس : يعض بالأضراس . المنسم : الحافر . يفره : يصونه ويبقيه . لا يتجمجم : لا يتردد . الزجاج : جمع زج وهو أسفل الرمح . والعوالى : جمع عالية وهى أعلاه . اللهذم : اللسان الطويل . الذود : الدفع . من لا يظلم يظلم : يريد به أن من طبع الناس أن يبطشوا بالضعيف وأن يظلموا من لا يقدر على الظلم . الخليقة : السجية .

لقد رسم لنا هـذا الرجل مناهج السلوك الخير فى حياتنـا ، وحدد الطريق الأمثل لمعاملة البشر بعضهم لبعض ، وترك للناس شعراً خالداً يجب أن يحتذى على مر الأيام وتتابع العصور ؛ ذلك بما أخرجه لنا من حكم ومواعظ بلغت السماكين علوا وشرفاً ومكانة ، وتغنت بها الركبان ، وصارت درة فريدة على جبين التاريخ والأزمان ، وخير شاهد على ذلك ، وخير شرف يتوج به هذا الرجل العظيم قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مناضلته للشعراء « أفضل الشعراء الذى يقول (ومن ومن) » يقصد صاحبنا ، فقال له ابن عباس رضى الله عنهما : يا أمير المؤمنين لم صيرته شاعر الشعراء ؟ فقال عمر : لأنه لا يعاظل بين الكلامين (١) ولا يتبع وحش الـكلام ولا يمدح أحداً بغير ما فيـه » (٢) .

والذى قصده زهير بن أبى سلمى من إيراد حكمه التى يبثها فى الناس وينشرها بين القوم ، ويذيعها بين أرجاء الجزيرة العربية ... الذى قصده زهير أن الحكمة والموعظة الحسنة من شأنها — فى هذه المواقف وغيرها — أن ترقق الشعور وتبعث فى النفوس الصفاء وحسن المعاملة وجمال المعاشرة فهى تدعو إلى حب الناس والتآخى والتآزر ، وقول الحق والقضاء على الفتن والخلافات ، كما تدعو إلى كثرة البذل والعطاء والتحلى بالأخلاق العاليـة والشمائل الفاضلة ، وكل هـذه الأهداف والأغراض تدعم السلام وترسى قواعده ، وتقيم عمده ، وتبغض فى نفوس الناس الحرب والتطاحن والتنافر والخصام والصدام وسفك الدماء .

وهذه الحكم السامية تسلك بالناس مسلك التراحم والعطف والتغاضى عن

---

(١) أى لا يردد الـكلام فى القافية بمعنى واحد ولا يوالى بعضه فوق بعض .

(٢) انظر طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٢٩ ط صبيح بالقاهرة .

المعايب وبذل الخير للناس ، والعمل لخيرى الدنيا والآخرة ؛ لأن الموت يفاجىء الناس ، ولا يترك المرء من حياته إلا الذكرى طيبة كانت أم غير طيبة .

ولا شك أن هذه الوسائل التى سلكها زهير قد تضافرت جميعها لتقريب دعوته إلى قلوب الناس ؛ فكان لهما أثر طيب فى نفوسهم الجامحة الملتهبة بنار الحقد والكراهية ، ولقد رأينا كيف اعتمد زهير على جانب المديح الذى أبرز فيه أجمل ما يتصف به هذان السيدان الكريمان ليقتدى الناس بهما ويسيروا على منوالهما ، واعتمد زهير بعد ذلك على قوة تصويره لنار الحرب وإبرازها فى صورة مجسمة منفرة تقشعر لها الأبدان وتطيب من هولها الولدان ، ولا شك أن من يقرأ هذه الطورة وينعم النظر فيها يكره الحرب ويجنح إلى السلم ، ويدعو له ويؤازره بكل ما يملك .

ثم اعتمد زهير على ضرب المثل الحى القائم بين العرب فى قصة (حصين ابن ضمضم) وبين للناس نتيجة الغدر والخيانة ، وفى هذا تأكيد لما يدعو له من السلام والحب والصفاء بين الناس جميعا .

وكان للحكمة دورها الفعال فى الحث على مكارم الاخلاق ونزع الاحقاد ، وتربية النفوس تربية صالحة ، ومن شأن الحكمة أنها ترقق المشاعر والأحاسيس ، وتلين القلوب الجامدة ، وتستحوذ على النفوس الجامحة .

وكان الشاعر موفقا فى هذه النقلات التى سلكها ؛ فهى نقلات منطقية نفسية تتفق مع الطبيعة البشرية المتمردة ؛ فقد استولى الشاعر على مشاعر سامعيه بهذا المديح الصادق الصادر من أعماق نفسه وأغوار وجدانه وشغاف قلبه ، ثم كانت هذه الجرعة القاسية التى حركت النفوس وامتصت حدتها وجبروتها بقوة تأثيرها وتصويرها وشدة وعظها وإرشادها ؛ فكان فيها مرشداً ومعلماً يأخذ بالالباب ، ويستولى على المشاعر والاحاسيس ...

وأخيرا نجد الشاعر حكيما أديبا يفيض على السامعين من تجاربه وعظاته وحكمه ، ومن هنا كان زهير فى هذه المعلقة الخالدة شاعرا مفلقاً لا يشق له غبار بين شعراء الجاهلية ، وتحقق له فيها ما أراد من قوة التصوير وعظم التأثير ، وكان شعره فى هذا اللون تعبيراً صادقا عن نفسيته ووجدانه وأحاسيسه ومشاعره .

إن أهم شىء يميز زهيرا أخلاقه العالية ونفسه الكبيرة مع سعة صدره وعظيم حلمه ؛ حتى إن قومه قد رفعوا منزلته وجعلوه سيداً عليهم(١) ، ولا عجب فهو من هذه الطبقة المثالية الخلق التى التزمت بمكارم الأخلاق ، وكانت عازفة عن حياة اللهو والمجون ، وعرفت بأنها طبقة عفيفة متوقرة عاقلة يمثلها زهير أو قل أنشأها زهير بن أقرانه من الشعراء فى هذا المجتمع القبلى المضطرب(٢) ، ولا شك أن من يكون بهذه السجايا السامية وهذه الأخلاق الفاضلة يسمو على العصبية القبلية ؛ بل يحارب ما تغلغل فى هذه النفوس الظامئة للحرب والفناء والخراب ، وينزع ما فيها من غل وحقد وكراهية وهمجية وعدوان ، ولحبه لمكارم الأخلاق نراه — دائما — يمدح الأخيار ويشجعهم على فعل الخير ، ويصف ممدوحه بكريم الخلق وأسمى الصفات ، ويعد هذا مما يتحلى به السيد الحجاج المهيب فى قومه ، ونراه دائما يجعل كرم الخلق من مناقب الشرف والسؤدد .

وأمر آخر كان سبباً فى هذا اللون الذى مال إليه زهير ؛ ذلك أنه شهد الحروب الطاحنة التى اهلكت الحرث والنسل خاصة حرب (داحس والغبراء) بين بنى ذبيان الذى ينتمى إليهم أخواله بنو عبس ، وقد دامت تلك الحرب

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٩٨/١ ط الهلال القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) انظر كتاب (زهير بن أبى سلمى) للدكتور / عبد الحميد سند الجندى ص ١٣٤ ط دار القومية العربية للطباعة بالقاهرة .

أربعين سنة كما تذكر المصادر القديمة ، وقد كانت الحرب عامل شقاق وثأر وتناحر تترك وراءها الويلات ولا تنتهي إلى سلم حيث كان الثار يولد الثأر والقتل يبعث على القتل ، وحلقات الدماء لا ينضب لها معين ، ولا شك أن هذه الأحداث الجلى قد ولدت لديه ميلا إلى التفكير في أفعال قومه ، ونزوعهم إلى الجهل والعنف لحل مشكلاتهم (١) فلجأوا إلى نزع الحقد من من قلوبهم مرة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومرة بتصوير الحروب وبشاعتها والتنفير منها ومدح الساعين لأى بادرة من بوادر السلام .

وأمر ثالث هو البيئة التي عاش فيها زهير بن أبي سلمى ؛ فقد نشأ في بيئة هيأته هذه التهيئة ، وكان لأستاذيه العظيمين وقريبيه الكريمين أوس بن حجر وبشامة بن الغدير أثر عظيم في تنمية هذا الاتجاه عنده ، وهما اللذان عركا الدهر وحلبا أشطره ، وكان أولهما كثير التحدث في مكارم الأخلاق ، وكان ثانيهما معروفا بصدق النظر وطول التجربة واستصفاء الرأى المسدد والمشورة الصائبة(١) ولهذا كان شعر زهير يتسم بالحكمة ، ويضع للناس فيه قواعد المعاشرة والمعاملة ، ويريهم فضيلة الخلق الكريم وعزة النفس وعمل الخير ، والتحلي بمكارم الأخلاق .

ولهذا فلا غرابة إذن أن يكون زهير داعية للسلام ؛ فهذا الأمر قريب إلى ما طبع عليه من كرم الخلق وصفاء الطبع وطول التجربة والانتفاع بحوادث الأيام ، وصدق النظر في عواقب الأمور التي اكتسبها على مر الأيام ، وكان للبيئة أثر واضح فيها .

---

(١) انظر : نماذج في النقد الأدبي لإيليا حاوي ص ٢٠٨ ط دار الكتاب اللبناني ببيروت .

(٢) انظر كتاب (زهير بن أبي سلمى) للدكتور عبد الحميد سند الجندي ص ٢٥٠ .

والعاطفة الشعرية عند زهير فى هذا اللون من شعره قوية صادقة ، فهى تعبر عن وجدان صاحبها أعظم تعبير ، وتصور ما تكنه نفسه من حب للخير والتسامح وكراهية للغدر والشر ، وماجاء فى المعلقة صورة صادقة لبعض مظاهر الحياة فى العصر الجاهلى بمايتخللها من حروب وصراع وويلات ، ومن مآثر خالدة لبعض كبار النفوس ، كما أنها تعرض لنا شخصية زهير بما امتاز به من عقل وحكمة وحب للسلام ونزعة إلى التدين ، وما اشتهر به من ضرب الأمثال ونقد المجتمع والتعريف بشىء من أحواله ، ويتضح فيها أثر البيئة الجاهلية من اختيار الصور والأخيلة الناطقة بالحياة النابضة بالحركة ، إذ يكاد القارىء يرى هذه الصور ماثلة أمامه فى كثير من الجمال ودقة التصوير كما يتضح فيها خصائص أسلوب شاعرنا من جزالة اللفظ ومتانة التركيب ونقاء العبارة وبعدها عن التعقيد والإغراب ، مع وضوح معانيه وبعدها عن الإسفاف والابتذال (١) .

وختاما يجدر بنا أن نقول بعد أن عرضنا لشعر زهير من خلال معلقته الرائعة ولمسنا الجوانب الإنسانية فيها : إن زهير بن أبى سلمى شاعر إنسان يعمل من أجل خير الناس وإسعادهم فهو بحق شاعر السلام فى العصر الجاهلى وصوت الفضيلة ورائد الحق ونصير الخير وداعية الخلق الكريم ؟

دكتور / على محمد على طلب
مدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) انظر : من النصوص الأدبية فى الجاهلية والإسلام للأستاذ الدكتور مصطفى محمود يونس ص ٢٣ ط الفجر الجديد القاهرة ١٩٨٢

ابن أبي الربيع الأشبيلي النحوي
حياته - آراؤه النحوية

دكتور درديري محمد أبو السعود

عبد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني الاشبيلي(١) .

وقيل : اسمه : علي(٢) علي بن محمد بن عبد الله بن أبي الربيع القرشي الإشبيلي .

ويكنى ابن أبي الربيع بأبي الحسن(٣) . ولم تختلف المصادر التي ترجمت له في هذه الكنية .

وقد ذكر السيوطي في البغية أنه ولد في رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة في إشبيلية . وجاء إلى سبتة لما استولى الفرنج على إشبيلية ، وقرأ بها النحو .

وهو إمام أهل النحو في زمانه ، ومات فيها سنة ثمان وثمانين وستمائة .

تلقى ابن أبي الربيع العلم على يد شيوخ أجلاء وأساتذة فضلاء أسهموا في ثقافته ، وصنعوا منه طالباً نجيباً ، وعالماً فذاً ، ولم يكتف بالتلمذة على شيخ أو شيخين بل تتلمذ على عدد من الشيوخ حتى يحصل على قدر كبير من المعارف .

---

(١) البغية ١٢٥/٢

(٢) الذيل والتكملة السفر الخامس ص ٣٠٦

(٣) البغية ١٢٥/٢ ونفح الطيب ٦١٩/٢ ، ١٤٥/٤ ، ٢٣٢/٥ .

والعلوم المختلفة ، وقد تكفلت المصادر التى بين أيدينا بذكر عدد من أساتذته هم :

١ — الدباج :

هو على بن جابر بن على الإمام أبو الحسن الدباج(١) الأشبيلى اللخمى النحوى ، كان نحويا أديباً مقرئاً جليلا فاضلا قرأ النحو على ابن خروف وغيره ، والقرآن على أبى بكر بن صاف ونجبه وتصدر لإقراء النحو والقرآن نحو خمسين سنة ، وأخذ عنه النحو ابن أبى الربيع ، ومات فى الحادى والعشرين من شعبان سنه ست وأربعين وستمائة .

٢ — الشلوبينى :

هو الأستاذ أبو على عمر بن محمد بن عمر عبد الله الأشبيلى الأزدى(٢) الأندلسى المعروف بالشلوبينى ، ولد سنة اثنتين وستين وخمسمائة بأشبيلية ، وكانت وفاته ليلة الخميس عشر صفر سنة خمس وأربعين وستمائة عن ثلاث وثمانين عاما .

وكان إماما فى العربية ذا معرفة بنقد الشعر وغيره وكان بحق بحراً لايجارى وحبرا لا يبارى وقد أذن لابن أبى الربيع أن يتصدر لتدريس النحو وكان يرسل إليه الطلبة الصغار .

٣ — أحمد بن محمد بن أبى هارون التميمى الإشبيلى كان أحد كبار المقرئين الموجودين وجلة الأدباء النحويين مع الفضل التام والدين المتين قرأ بالسبع على أبى إسحاق بن على بن صلحة وأبى بكر بن خير وغيرهما ؛ وروى عنه ابنه

---

(١) البغية ٢/١٢٥

(٢) البغية ٢/٢٢٥ وأعلام النبلاء ١٢/٢٧٣ وشذرات الذهب ٥/٢٣٢ .

أبو عمرو وأبو علي الشلوبين(١) وأبو القاسم بن الطيلسان وغيرهم ، وكان حياً سنة سبع وستمائة .

٤ — ابن بقي ، هو أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد القرطبي(٢) أبو القاسم ابن أبي الفضل .

يعرف بابن بقي كان إماماً في اللغة وعلم العربية ، روى عن أبيه وجده، وكان قاضي الخلافة المنصورية وكاتبها ويميل إلى الظاهر ، أطيب الناس نفساً وخلقا ، ألف كتاباً في الآيات المتشابهات ، وكان مولده يوم السبت عشر من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، ومات بقرطبة يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة .

ويبدو أن ابن أبي الربيع لم يأخذ عن ابن بقي كثيراً ، لأن عمره حين مات ابن بقي ، كان ستاً وعشرين سنة تقريباً وقد أشار السيوطي إلى أنه سمع منه ، وذلك لا ينافي التلمذة عليه .

تلاميـــذه :

كان ابن أبي الربيع إماما في النحو وشيخاً في العربية فكان بحق إمام أهل زمانه وحجة عصره وكعبة قاصديه ، فأقرأ النحو أبناء دهره ، وأخذ عنه جماعة كما روى عنه آخرون ، فمن تلاميذه الذين أخذوا عنه :

١ — محمد بن عبيدة الإشبيلي (٣) :

هو : أبو عبد الله محب الدين محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس

---

(١) البغية ٣٥٩/١ وسيرة أعلام النبلاء ٢٧٣/١٣

(٢) البغية ٣٥٩/١

(٣) انظر البغية ١٧٠/١ ، ١٩٩ — ٢٠٠

ابن سعيد بن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي يعرف بابن رشيد ، كان متضلعاً في العربية واللغة والعروض ، فريد دهره عدالة وجلالة وحفظاً وأدباً وسمتاً وهدياً ، كثير السماع عالي الإسناد صحيح النقل .

قرأ على بن أبي الربيع وحازم القرطاجني ، ورحل فأخذ بمصر والشام والحرمين عن جماعة ، ولد سنة سبع وخمسين وستمائة بسبتة ، ومات بفاس في المحرم سنة إحدى وعشرين وسبعمائة .

٢ — أبو إسحاق الغافقي (١) :

إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن يعقوب شيخ النحاة والقراء بسبتة ولد بأشبيلية سنة إحدى وأربعين وستمائة وحمل صغيرا إلى سبتة .

وقرأ بالروايات على أبي بكر بن شبلون ، وقرأ على ابن أبي الربيع وتقدم في العربية وساد أهل المغرب فيها ، وله شرح الجمل وغيره ومات سنة عشر وسبعمائة .

٢ — ابن الحكيم الرندي :

من تلاميذ ابن أبي الربيع : الوزير الشهير أبو عبد الله بن الحكيم الرندي ذو الوزارتين (٢) رحل إلى مصر والحجاز والشام وأخذ الحديث عن جماعة ، وأخذ ببجاية عن خطيبها أبي عبد الله بن رحيمة الكناني ، وبتونس عن قاضيها أبي العباس بن الفخار البلنسي ، وأخذ العربية عن قدوة النحاة أبي الحسين عبد الله بن أبي الربيع القرشي .

---

(١) البغية ١/٤٠٥

(٢) نفح الطيب ٢/٦١٠ ، ٦١٥

ونال ابن الحكيم من الرئاسة والتحكم فى الدولة ما صار كالمثل السائر وخدمته العلماء الأكابر وقتل يوم خلع سلطانه ومثل به سنة ٧٠٧ رحمه الله تعالى .

٤ — أبو محمد عبد المهيمن بن محمد بن على بن محمد بن عبدالله الحضرمى الشهير بالرئيس (١) . ويرتفع نسبه إلى العلاء بن الحضرمى صاحب رسول الله ، وأصل سلفه من اليمن ، فارتحل إلى المغرب ونزل بسبتة .

كان إمام المحدثين والنحاة بالمغرب وكان خاتمة الصدور ذاتاً وسلفاً وجلالة قرأ على أبى جعفر بن الزبير وأبى بكر بن عبيدة وجماعة . وروى عن ابن رشيد وابن أبى الربيع وغيرهما . وأجاز له مالك بن المرحل وأبو الفتح بن سيد الناس ووالده أبو عمر ، وأخذ عنه ابن خلدون وغيره .

ولد بسبتة سنة ست وسبعين وستمائة وتوفى بتونس فى الطاعون العام سنة تسع وأربعين وسبعمائة (٢) وقيل توفى بسبتة سنة ٧١٢ (٣) .

٥ — ابن غصن الاشبيلى (٤) :

من تلاميذ ابن أبى الربيع ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الشهير بابن غصن الاشبيلى من ولد شداد بن أوس الانصارى الجزيرى نسبة إلى الجزيرة الخضراء فهو الإمام المقرىء الزاهد ، وقد عرض على الأستاذ ابن أبى الربيع الموطأ من حفظه ، وأخذ عنه النحو وكان من أولياء الله الصالحين وعباده

---

(١) انظر نفح الطيب ٥ / ٤٦٥ وشذرات الذهب ٥ / ٢٤٠ والبغية ١/١١٦ - ١١٧

(٢) نفح الطيب ٥/٤٦٨ والبغية ٢/١١٧

(٣) شذرات الذهب ٥/٢٤٠

(٤) نفح الطيب ٢/٢٠٧

الناصحين اقرأ القرآن بالقراءات مدة بمكة والمدينة وبيت المقدس .

وله مصنفات فى القراءات منها : مختصر الكافى، وكتاب فى معجزات النبى ﷺ ، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة تقريبا .

٦ — ابن يحي الحسينى السبتى :

هو الشيخ الشريف المعمر أبو على حسن بن يوسف بن يحي الحسينى السبتى(١) .

أدرك أبا الحسن من أبى الربيع وأبا القاسم العزفى . ورحل إلى الشرق فمات بتلمسان سنة أربع وخمسين أو ثلاث وخمسين وسبعمائة .

٧ — أبو حيان الأندلسى النحوى(٢) :

هو الإمام أثير الدين محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى الغرناطى النفزى . نحوى عصره ، ولغويه ومفسره ومحدثه ومقريه ومؤرخه وأديبه . وكان ثبتاً فيما والتزم ألا يقرىء أحداً إلا فى كتاب سيبويه أو التسهيل أو مصنفاته .

ولد سنة أربع وخمسين وستمائة . وأخذ علمه عن أربعة وخمسين شيخاً منهم أبو الحسن بن أبى الربيع . وتوفى فى القاهرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة .

مكانته العلمية :

لابن أبى الربيع مكانة علمية مرموقة فقد شهد له علماء عصره وتلاميذه ، فذاع صيته ، وانتشر خبره ، وطارت شهرته ، حتى كان موضع تقدير واحترام وكانت آراؤه مناط تأس والتزام ؛ وأقواله محل نظر ومجال استشهاد .

---

(١) المصدر السابق ٥/٢٣٢

(٢) شذرات الذهب ٦/١٤٥ والبغية ١/٢٨٠ .

قال أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى (رشدت ورشرت قطلة ابن أبى الربيع(١)) .

وقال الشاطبى (حدثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد الله محمد بن الفخار — شيخنا — رحمه الله تعالى — قال حدثنى بسبتة بعض المذاكرين أن ابن خميس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عيون طلبتها ، فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال لحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم : أنتم عندى كرجل واحد . يعنى أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد وهو ابن أبى الربيع(٢)) .

فابن خميس له منزلة بين طلابه وتلاميذه ولدى معاصريه ؛ ولكنه مع ذلك يشهد بأن غوامض المسائل التى سئل عنها أخذت عن ابن أبى الربيع . وفى ذلك إقرار بغزارة علمه ، وتمكنه من مسائل النحو . وقد ذكر السيوطى أنه إمام أهل النحو فى زمانه ولم تشذ عنه مسألة فى العربية .

كما ذكر أنه لم يكن فى طلبة الشلوبين أنجب منه(٣) وذكر صاحب النفح ، أنه أحد طلبة الشلوبين ، ومن كبار هذه الطبقة التى نشأت بعده ،(٤) .

وغير ذلك كثير من الآثار الدالة على أنه كان ضابطا متقنا(٥) . فكان بحق بحراً لا يجارى وعالما لا يبارى .

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٧٤ .

(٢) نفح الطيب ٥/٣٥٦ .

(٣) البغية ٢/١٢٥ .

(٤) نفح الطيب ٢/٢١٠ .

(٥) الذيل والتكملة والصلة السفر الخامس ص ٢٠٦ .

منـــاظراته

كان ابن أبي الربيع قدوة النحاة فقد ملأ الأرض نحوا ، وكان ثبتا متينا في اللغة بصيرا بمسائلها ، ملما بغوامضها ومشكلاتها . وقد تصدى لكل رأى خالف القياس وغير وجه اللغة ، وثنى عطف القاعدة .

ومن ذلك تصديه لمالك بن المرحل المالكي النحوي الأديب فقد وقعت مناظرة بينهما نال فيها ابن الربيع من ابن المرحل (١) وكانت الغلبة له . وكانت المناظرة في مسألة . هل يقال (كان ماذا) حتى ألف مالك كتاب (الرمى بالحصا والضرب بالعصا) وفيه هنات لا ينبغي لعاقل أن يذكرها ، ولا لذى طى في البيان أن ينشرها . ومن نظم مالك بن المرحل في هذه القضية .

عاب قوم كان ماذا   ليت شعرى كان ماذا
أن يكن ذلك جهلا   منهم فكان ماذا

وجهله ابن أبي الربيع وصنف في المنع مصنفا خاصا بمنعها وقال في ذلك :

كان ماذا ليتها عدم   جنبوا قربها ندم
ليتني يامال(٢) لم أرها   أنها كالنار تضطرم

وقد قال أبو حيان مبينا مكانة كل منهما ومنزلته من الآخر (لا نسبة بين ابن أبي الربيع وابن المرحل فإن ابن أبي الربيع ملأ الأرض نحوا) .

وإذا علمنا أن أبا حيان كان تلميذا لكل منهما ، وتلقى عنهما وأجازاه .

---

(١) ذكرت المناظرة في نفح الطيب ١٤٥/٤ والبغية ٢٧١/٢ ونشأة النحو ص٢٢٣ .

(٢) قوله : (يامال) ترخيم مالك .

أمكننا الحكم بعد هذه الشهادة على ابن أبي الربيع بأنه كان نحوى زمانه ، وأمام أهل عصره وشيخ أقرانه .

مؤلفـــاته

لابن أبي الربيع مؤلفات منها : شرح كتاب سيبويه ، وشرح الجمل للزجاجى (عشرة مجلدات) وشرح الإيضاح(١) ، والملخص والقوانين كما ألف كتابا فى منع (كان ماذا) رد فيه على ابن المرحل .

آراؤه

المكانة العلمية التى تميز بها ، والقدرة على إلمامه بأوابد اللغة وشواردها شهد له الجميع بالدقة والعمق ، والإحاطة . فلم تشذ عنه مسألة لغوية ، ولم تقف أمام عقله مشكلة نحوية . لذلك كانت آراؤه متينة وتوجيهاته معقولة ، وتعديلاته مقبولة . وأقيسته مدعومة ، واستدلالاته موثقة .

وقد تكفلت المراجع النحوية واللغوية بذكر العديد منها فى تضاعيفها .

ومن خلال هذه الآراء التى سنتعرض لطرف منها فى هذا البحث . يبدو فكر ابن أبي الربيع ويتضح منهجه ، فلم يكن بصريا متزمتا ، ولا كوفيا متعصبا .

وإنما يرجح ماتقوى حجته ، وتسلم علته ، ويثبت لديه دليله ، ويستقيم

---

(١) الجزء الخامس منه موجود فى دار الكتب المصرية برقم ١٦ نحو فى ١٤٦ ورقة .

بعنوان : الافصاح فى شرح كتاب الايضاح .

يبدأ بباب حروف الزيادة و ينتهى بباب الادغام .

وفى حوزتى نسخة مصورة منها .

قياسه فهو ينظر ويحلل ، ويوجه ويعلل ويوافق أى المذهبين متى وجد الحق معه والصواب بجانبه . وكثيرا ماينفرد برأيه ، ويستقل بوجهة نظره .

ومن خلال تتبعى لآرائه المبثوثة فى كتب النحو واللغة والتراجم . وجدت بعضا منها فى الحروف والأدوات ، وبعضاً آخر فى الظروف ، وبعضاً ثالثاً فى الأفعال والأسماء ، وبعضاً رابعاً فى التركيب والوقف . وسأعرض الآن لبعض آرائه فى الحروف والأدوات . مرجئا الحديث فى غيرها لظرف آخر . وإليك هذه الآراء .

الحروف والأدوات

أولا الحروف :

تاء القسم

حدث خلاف بين النحويين فى الجر بالتاء .

فذهب سيبويه إلى أنها لا تجر فى القسم ولا فى غيره إلا فى الله .

إذا قلت : تالله لأفعلن (١) ، ودخولها على غير لفظ الجلالة شاذ .

ووافقه فى ذلك : ابن أبى الربيع وابن مالك والرضى وابن الأنبارى وغيرهم (٢) .

وجوز بعضهم (٣) دخولها على لفظ (رب) مضافا إلى الكعبة أو إلى ياء المتكلم فيقال : ترب الكعبة وتربى لأفعلن .

ومنهم من حكى دخولها على : (الرحمن) و(حياتك) فيقال : (تالرحمن) و (تحياتك) وقالوا إن ذلك قليل أو نادر ، فنحن نرى أن ابن أبى الربيع يوافق سيبويه والجمهور فى اختصاص تاء القسم بالله تعالى .

وإنما كانت هذه التاء للقسم لأنها بدل من واو القسم نحو قولك : تالله لأخرجن ، والأصل : والله لأخرجن، قال تعالى: «والله لأكيدن أصنامكم» و « تالله تفتأ تذكر يوسف »(٤) .

---

(١) الكتاب : ٢٨/١ .

(٢) انظر الأشباه والنظائر ٢٤٨/١ والتسهيل ١٤٤ وشرح الكافية ٣٣٤/٢ والإنصاف المسألة ٢٧ ورصف المبانى ص١٧٢ وللسيوطى ٢٩/٢

(٣) المغنى ٩٨/١ والأسيوطى ٢٠٧/٢ .

(٤) الأنبياء ٥٧ ، يوسف ٨٥

وكانت هذه التاء بدلا من الواو دون الباء التي هي أصل في حروف القسم لما يأتي :

١ — لأن التاء لا تدخل إلا في اسم الله — تعالى — خاصة دون غيره من الأسماء المعظمة. بخلاف الباء فإنها تدخل على كل مقسم به ظاهراً كان أو مضمراً . أما الواو فتدخل على اسم الله وغيره من الظواهر دون المضمرات. ولهذه المشابهة كانت التاء قريبة من الواو مبدلة منها .

٢ — ولأنها أبدلت منها في بعض المواضع مثل : اتعد واتزن واتعظ ، واتصف في : ارتعد واوتزن ، واوتعظ ، واوتصف .

٣ — ولأنها — أي التاء — مفتوحة كالواو بخلاف الباء فهي مكسورة: فالتاء أقرب إلى الواو بهذا الشبه منها إلى الباء . لذلك كانت نائبة عنها ومبدلة منها .

رب

اختلف النحاة في (رب) فذهب البصريون إلى أنها حرف(١)

وذهب الكوفيون إلى أنها اسم وأيد ذلك الرضي بحجة أنها في التقليل والتكثير ، مثل كم الخبرية في التكثير .

وهي جارة لما بعدها ، بشرط تصدرها نحو : رب رجل لقيته .

فلا تجرحدثوا ، فلا يقال : لقيت رب رجل عالم . لأنها نقيضة كم الخبرية في التكثير . فكما لزمت كم الخبرية الصدر لأنها تشبه الاستفهامية في اللفظ ، لزمت (رب) الصدر لأنها ناقضت كم الخبرية في إفادتها التقليل ، والعرب تحمل الشيء على النقيض كما تحمله على النظير.

---

(١) انظر في (رب) رصف المباني ص١٨٨ وما بعدها، ومعاني الحروف للرماني ص ١٠٦ وابن يعيش والصاحبي ٢٨/٨ والرضي ٣١٥/١ والتسهيل ص١٤٧ والهمع ٢٧/٢ والأشموني ٢١٨/٢ والصبان ٢٠٨/٢ .

وبشرط — أيضاً — أن يكون مجرورها نكرة . لأن التقليل والتكثير لايكونان إلا فى النكرات .

فإن جاء بعدها مايوهم أنه معرفة فهو جار مجرى النكرة فى عدم قصده وتعيينه . وقد تجر — على قلة — ضميراً مفرداً مذكرا مفسرا بنكرة منصوبة مطابقة للمعنى الذى يقصده المتكلم وإن كان المميز مثنى أو جمعاً أو مؤنثاً . فيقال : ربه رجلا وربه امرأة وربه رجالا .

وجوز الكوفيون مطابقته للتمييز فى التثنية والجمع والتأنيث قياساً وسماعا ورد ابن عصفور ذلك محتجا بأن العرب استغنت بتثنية التمييز وجمعه عن تثنية الضمير المجرور ، كما استغنوا بترك عن : وذر وودع ولكن ابن أبى الربيع يوافق ابن عصفور فى رده رأى الكوفيين . ويخالفه فى علة المنع ، فهو يرى أن العرب استغنوا عن الوصف بما دل عليه الإضمار من التفخيم فقولك : ربه رجلا بمنزلة قولك رب رجل عظيم لاأقدر على وصفه .

وأرى أن هذا التوجيه معقول ومقبول حيث إن دلالة الإضمار على التفخيم ظاهرة ظهوراً أغنى عن الوصف . فهو حين يذهب إلى رأى يقتنع به ، ويميل إليه، يوجه ويعلل، ولا يلقى الكلام غفلا دون توجيه أو تنظير.

لات

من الأدوات العاملة عمل ليس (لات)(١) .

واختلف فى حقيقتها .

فذهب سيبويه إلى أنها مركبة من : لا ، والتاء . كأنما .

---

(٢) انظر فى لات : رصف المبانى ص ٢٦٢ ومشكل القرآن ٢/٩٩ تأويل مشكل القرآن ٥٢٩ والمفردات ٤٥٥ والهمع ١/١٢٦ والمقرب ١/١٠٥ والمغنى ١/١٨٧ ومنار السالك ١/١٤٨ والاشمونى ١/٢٥٧ .

وذهب الأخفش والجمهور إلى أن أصلها : لا ، زيدت التاء عليها لتأنيث الكلمة كما زيدت على ثم ورب فقيل : ثمت : وربت ، وقيل أن زيادتها للمبالغة فى النفى كما فى : علامة ونسابة .

وذهب أبو عبيدة وابن الطراوه إلا أنها لا النافية والتاء زيدت فى أول الحين بعدها .

وذهب أبو ذر الخشنى إلى أنها فعل ماضى بمعنى نقض . من قوله تعالى: (لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) فإنه يقال : ألت يالت .

وذهب ابن أبى الربيع(١) إلى أن الاصل فى (لات) ليس أبدلت سينها تاء كما فى ست ، ثم قلبت الياء ألفاً لان الاصل فى ليس لاس لأنها فعل ، ولكنهم كرهوا أن يقولوا ليت فيصير لفظها لفظ التمنى ولم يفعل هذا إلا مع الحين ، كما أن لدن لم تشبه نونها بالتنوين إلا مع غدوة .

ولكنى أرى أن ابن أبى الربيع وإن حاول التنظير والحمل على النظير فرأى الاخفش والجمهور أقوى ، لأنها عملت عمل لا النافية العاملة عمل ليس،وزيادة التاء لايؤثر فى عملها . كما أن اختصاصها بالعمل فى الحين ومرادفه يقوى حرفيتها ، وتحريك التاء الزائدة يؤكد الحرفية ويدعمها ، لان التى تلحق الفعل ساكنة ، وليست متحركة ، فرأى ابن أبى الربيع ضعف لذلك ولوجهين آخرين :

الاول : أن فيه جمعاً بين إعلالين وذلك مرفوض فى كلامهم . وإن كان الصبان(٢) قدرد بأنه قدحدث جمع بين أكثر من إعلالين كما فى قضايا وخطايا .

الثانى : أن قلب الياء الساكنة ألفاً ، وقلب السين تاء شاذان لا يقدم عليهما إلا بدليل ، ولا دليل يسوغ قلب الياء ألفاً والسين تاء .

---

(١) الهمع ١/١٢٦ والنكت لحسان ص٢٧٥

(٢) الأشمونى والصبان ١/٢٥٧

« اللام الفارقة »

إذا خففت (إن) المكسورة الهمزة المشددة النون قل عملها ويطل اختصاصها بالجملة الإبتدائية ، والغالب اهمالها .

وإذا أهملت لزمت اللام فى ثانى الجزأين بعدها فرقا بينها وبين إن النافية لالتباسها بها نحو : إن زيد لقائم .

وقد اختلف فى هذه اللام الفارقة .

فذهب سيبويه والاخفش الاوسط والصغير وأكثر نحاة بغداد وابن عصفور وابن هشام إلى أنها لام الابتداء التى تدخل مع المشددة . وقد أفادت — مع إفادتها توكيد النسبة وتخليص المضارع للحال — الفرق بين (إن) المخففة من الثقيلة وإن النافية ولهذا لزمت .

وذهب أبو على الفارسى وأبو الفتح وابن أبى العالية والشلوبين إلى أنها لام أخرى اجتلبت للفرق . لأن لام الابتداء مؤخرة من تقديم ، وهذه اللام بخلافها إذ تدخل فى الجملة الفعلية بخلاف تلك . ولأن هذه اللام يعمل مابعدها فيما قبلها بخلاف تلك ولأنها تدخل على غير المبتدأ والخبر من الفاعل والمفعول بخلاف تلك .

وارتضى هذا الرأى ابن أبى الربيع مخالفا سيبويه وغيره من أئمة النحو ، مرجحا رأى غيرهم .

وبذلك نستطيع الحكم على ابن أبى الربيع بأنه يستعمل عقله ، ويميل

---

(١) انظر الكتاب ١/٣٤٤ والاصول ١/٢٨٠ ، ٢٨٧ والتوطئة ص ٢١٨ والمغنى ١/١٧٦ والجامع الصغير ٦٧ والتسهيل ص ٦٥ ومنار السالك ١/١٩٠ والمقرب ١/١١١ والهمع ١/١٤٢ والأشمونى والصبان ١/٢٧٨ .

إلى مايقتنع به مادامت العلة مقبولة ، والتوجيه سديدا ، وأن عارض الجمهور لأنه — كما قلنا — لايقبل إلا ماقويت لديه حجته .

« لام المستغاث »

اختلف النحاة فى هذه اللام(١) .

فذهب المبرد وابن خروف وأبو حيان إلى زيادتها ، بدليل إسقاطها ، وذهب الجمهور إلى أنها غير زائدة فهى لام الجر . وهو الأصح . ولكنهم اختلفوا فى متعلقها .

فقال ابن جنى أنها متعلقة بحرف النداء لما فيه من معنى الفعل .

وذهب سيبويه إلى أنها معلقة بفعل النداء المحذوف ، واختاره ابن الضائع وابن عصفور ، واعترض على هذا الرأى بأن الفعل المحذوف يتعدى بنفسه لا بالحروف .

ولكن ابن أبى الربيع(٢) يخالف الجميع ويذهب إلى أنها متعلقة بفعل النداء المحذوف المضمن معنى الالتجاء فى نحو : ياللدواهى . فاللام بمعنى من التعليلية . وبذلك يتجلى لنا استقلال ابن أبى الربيع بالرأى حين يقتنع به . ولا يضيره مخالفة غيره وأن كان المخالف إماماً ، وصاحب الرأى الآخر ثبتا وشيخا .

وزعم الكوفيون أن لام المستغاث بقية اسم ، وهو يا آل . والأصل يا آل زيد فحذفت همزة آل للتخفيف ، وإحدى الألفين لالتقاء الساكنين . واستدلوا بقول الشاعر :

---

(١) انظر فى هذه اللام : وصف المبانى ٢١٩ والتسهيل ١٨٤ والمغنى ١٦٨/١ والهمع ١٨٠/١ والتبيان للشيخ الضبع ١٤٦ والأشمونى ١٦٤/٣٠ .

(٢) انظر المغنى وحاشية الأمير ١٦٨/١ ، ١٦٩ .

نخير نحن عنـــد النـاس منكم   إذا الداعى المثوب قال يالا

وأجيب بأن الأصل : ياقوم فرارا ولا نفر . فحذف مايعـد لا النافية كما يقال : ألا تا . فيقال : ألا فا . يريدون ألا تفعلوا وألا فافعلوا .

فقد رأيت أن أبي الربيع خالف النحاة جميعهم . فهـو يوافق البصريين حين يكون الحق معهم .

ويوافق الكوفيين إذا كان الصواب فى مسلـكهم ، والقياس يدعم رأيهم ويخالفهما معاً إذا لم ترجحه العلة أو يقنعه الدليل . كما حدث فى مسلـكه فى هذه اللام التى نحن نتحدث فيها .

لـــكن

ترد (لـكن) فى الاستعمال على ثلاثة أوجه :

١ — أن تـكون حرف ابتداء يستأنف الـكلام بعـدها كإنما وليتما وذلك إذا دخلت على الجملة .

٢ — أن تـكون للعطف والاستدراك وذلك إذا لم تدخل عليها الواو وكانت بعد النفى وهى بذلك تعطف مفردا على مفرد مثله مثل : ماجاء على لـكن خالد .

٣ — أن تـكون لمجرد الاستدراك وذلك إذا دخلت عليها الواو نحو قوله تعالى : « ولـكن كانوا هم الظالمين » .

ولـكن ابن أبى الربيع يرى أنها فى هـذا الموضع عطفت جملة على جملة ووافقه فى ذلك ابن عصفور ، إلا أنه يذهب إلى زيادة الواو .

---

(١) انظر فى لـكن صف المبانى ص ٢٧٤ والانصاف فى المسألة ٦٨ وشرح المفصل ١٠٦/٨ والهمع ١٣٨/٢ والمغنى ٢٠٨/١ والمقرب ٣٢٣/١ الأشمونى ٩١/٢ ، ١١٠ .

ويرى ابن مالك أن الواو هي العاطفة ، ولكنها عطفت جملة حذف بعضها على جملة صرح بجميعها ، والتقدير عنده في نحو ماقام زيد ولكن عمرو ، ولكن قام عمرو ، وفي . ولكن رسول الله . ولكن كان رسول الله .

ليــــت

من المقرر في قواعد النحو أن ليت حرف تمن يتعلق بالمستحيل غالباً ، ويعمل عمل إن في احتياجه إلى اسم منصوب وخبر مرفوع مثل : ليت محمداً قائم . وأما الكوفيون فينصبون به اسمين كما ينصبون بظن . وأنشدوا على على ذلك قول الشاعر :

يا ليت أيام الصبا رواجعا

ورد بأن رواجعا يحتمل أن يكون حالا من أيام الصبا ، والعامل فيه ما في ليت من معنى التمني لأن الأحوال تعمل فيها المعاني التي في الحروف .

الحكم إذا اتصلت بها ما الحرفية :

إذا اتصلت بها ما الحرفية بقيت على اختصاصها بالأسماء . فيجوز إعمالها وتكون ما — زائدة فتقول : ليتما زيداً قائم .

ويجوز إهمالها حملا على أخواتها فتقول : ليتما زيد قائم ، وتكون (ما) كافة عن العمل ولكن ابن أبي الربيع أجاز دخولها على الأفعال ، ووافقه على ذلك طاهر القزويني فيقال : ليتما قام زيد ، كما تقــول : ليتما زيد قائم .

---

(١) انظر في ليت — رصف المباني ٢٩٨ وابن يعيش ٨/٨٤ والرضى ٢٤٦/١ والمقرب ١١٠/١ والمغنى ٤/١ ٢ والتسهيل ص ٦١ والهمع ١٤٣/١ والشذور ٢٨١ والأشموني ٢٨٣/١ .

ما النافية العاملة عمل ليس

القياس فى ما النافية(١) أن لا تعمل . ولها شبهان :

شبه عام ، وشبه خاص .

أما العام فهو شبهها بالحروف غير المختصة فى أنها تدخل على الأسماء وأما الشبه الخاص . فهو شبهها بليس فى دلالتها على النفى ، ودخولها على المبتدأ والخبر .

وترتب على هذين الشبهين اختلاف الحجازيين والتميميين .

فالتميميون أهملوها لأنهم راعوا الشبه العام .

والحجازيون أعملوها لأنهم راعوا الشبه الخاص .

فهى عاملة عمل ليس عند الحجازيين والبصريين ، غير عاملة عند التميميين .

ويأتى ابن أبى الربيع يناقش هذه المسألة فيوجه ويعلل ، ويقيس وينظر . فيقول : « إن ما النافية ليس لها اختصاص فيجب أن لا تعمل .

ولذلك لم يعملها بنو تميم ، فهى عندهم على القياس ، فلا سؤال فى كونها لم تعمل لأن الشيء إذا جاء على قياسه وقانونه لا يسأل عنه ، وأما أهل الحجاز فأعملوها لشبهها بليس(٢) » .

ثم يقول بعد ذلك موجها ومعللا لعملها عمل ليس عند الحجازيين « إنما لم تعمل (ما) عمل ليس مطلقا بل بالشروط المعروفة ، لأن (ما) مشبهة

---

(١) انظر فيها الكتاب ٢٨/١ والأصول ٢٧/١ ومعانى الحروف للرمانى ص ٨٨ ورصف المبانى ٣١٠ والمقرب ١٠٢/١ والمغنى ٦/٢ ومنار المسالك ١ / ١٤٢ والتوطئة ١٦٧ والأشباه والنظائر ١ / ٢٤٢ والأشمونى والصبان ٢ / ٢٤٧ .

(٢) الأشباه ٢٤١/١ — ٢٤٢ .

بليس ، وليس مشبهة بالفعل وكل ماهو مشبه بالفعل لا يعمل مختصا » . ثم ينظر لذلك فيقول : « ألا ترى أن تاء القسم اختصت باسم الله وإن كانت بدلا من الواو ، والواو تخفض فى القسم كل ظاهر ، وإنما كان الاختصاص باسم الله فى التاء لأنها مبدلة من الواو ، والواو بدل من التاء فهى فى الدرجة الثالثة فلذلك اختصت » .

فابن أبى الربيع يركز على القياس ويجعله الأساس ويميل إليه ، لأن الشىء إذا جاء على أصله لا يسأل عنه . ومع ذلك علل لإعمالها عند الحجازيين . فهو — كما قررنا — يقف فى جانب الحق ويعضده ، ويؤيد الصواب ويؤكده .

من . فى أسلوب التعجب السماعى

من أساليب التعجب السماعية قولهم : لله درك من رجل .

وقد تكلم النحويون فى (من) فى هذا الأسلوب .

فذهب سيبويه والمبرد إلى أنها للتوكيد(١) . ودخولها هنا كدخولها فى (كم) توكيدا ...

وذهب ابن السراج(٢) إلى أنها فى مثل هذا لإزالة التباس التمييز بالحال . لأنها لو لم تدخل على التمييز لالتبس بالحال . فأدخلت (من) لتخلصه للتمييز . إلا أن ابن أبى الربيع يخالف سيبويه وابن السراج معاً . ويذهب إلى أنها للتبعيض(٣) والتقدير فى قولهم : لله درك من رجل . لقد عظمت من الرجال . فوضع المفرد موضع الجمع ، والنكرة موضع المعرفة للعلم وطلبها للاختصار — ثم قال — ونظيرهذا قولك كل رجل يفعل هذا .

---

(١) الكتاب ١/٢٩٠ ، والمقتضب ٢/٣٥ .

(٢) الأصول لابن السراج ١/٢٧٤ .

(٣) الأشباه والنظائر ١/٣٠ .

الاصل كل الرجال يفعل هذا . فاستخفوا فوضعوا المفرد موضع الجمع والنكرة موضع المعرفة لفهم المعنى وطلباً للاختصار .

وهكذا نرى أن ابن الربيع يتسع فى التعليل ، ويقيس الشىء على النظير دون تعسف أو تفريط .

من الزائدة :

شرط النحاة لزيادتها(١) أن تسبق بنفى أو شبهه ، وأن يكون مجرورها نكرة . ولكن ابن أبى الربيع شرط شرطا ثالثاً وهو أن يكون مجرورها فاعلا أو مفعولا أو مبتدأ نحو قوله تعالى : (ماجاءنا من بشير(٢)) وقوله : (هل تحس منهم من أحد)(٣) .

وقوله : (هل من خالق غير الله يرزقكم(٤)) وقد وافقه ابن هشام فى هذا الشرط(٥) .

وقد أهمل أكثر النحويين هذا الشرط وعليه يلزمهم زيادتها فى الخبر والجار والتمييز المنفيات مع أنهم لا يجيزون ذلك .

فإذا شرط ابن أبى الربيع هذا الشرط . فحجته فى ذلك الاستعمال وبخاصة إذا كان ذلك وارداً فى أفصح الكلام وأبلغه وهو القرآن الكريم فلا ضير عليه فى هذا التحفظ القائم على فهم أساليب اللغة وتنوع استعمالاتها .

للبحث بقية

---

(١) الهمع ٣٥/٢ . (٢) الآية فى سورة

(٣) الآية ٩٨ فى سورة مريم . (٥) الآية ٣ فى سورة فاطر .

(٥) المغنى ١٥/٢ والهمع ٣٥/٢ .

الشيخ الدردير

جهوده اللغوية

د. عيد محمد الطيب

إنه لكسب عظيم يحظى به شداة المعرفة وطلابها حين تعقد الندوات وتقام المؤتمرات بحثاً فى حياة العلماء وتجلية لأعمالهم فيستلهمون الرشد من سيرهم ، ويسيرون على دربهم ويحذون حذوهم ويتخذون منهم قــدوة وهــداة .

وإنه لشرف عظيم للباحثين والدارسين أن يكشفوا ببحوثهم جوانب من أعمال العلماء الذين قدموها لبنى جنسهم يفيدون منها فى حياتهم ، فكانت سبباً فى بقائهم المعنوى بينهم وإن رحلوا عنهم بأجسادهم .

والشيخ أحمد الدردير مثال طيب لهؤلاء العلماء العاملين ذوى الأعمال الخصبة المجيدة فى عديد من مجالات العلوم الدينية واللغوية .

لذلكم كان الثناء كل الثناء لكلية الحقوق بجامعة أسيوط ، كان التقدير كل التقدير لقسم الشريعة بها ؛ إذ فكر فى إقامة هذه الندوة وقام على تنفيذها ، بهذا كان سباقاً للخير فكان جديرا بالتقدير ، إذ أريد بهذه الندوة تجلية شخصية من الشخصيات البارزة التى تركت بصماتها على هذه الأرض الطيبة . فكانت خير قدوة يقتدى بأعمالها بنو قريتها بل بنو إقليمها .

لقد حققت كليتكم بهذه الندوة أهداف الجامعات الإقليمية حين اتجهت

ألقى هذا البحث فى الندوة المنعقدة بكلية الحقوق جامعة أسيوط تحت عنوان «أبى البركات الإمام الدردير» فى الفترة من ٨٢/٣/٢٧ إلى ٨٢/٣/٢٩

إلى تجلية شخصيات الصعيد عموما وأسيوط على وجه الخصوص فللقائمين على أمر هذه الندوة كل تقدير على ما أتاحوا لى ولغيرى من الباحثين المشاركين ببحوثهم أو بحضورهم فرصة المشاركة بالقلم أو المتابعة ، فى هـــذا العمل الجليل .

هذا والبحث الذى أقدمه عن الشيخ الدردير يتناول جانبا من الجوانب التى قد يظن أن الشيخ المحتفى به بعيد عنها وأنه ليس له فيه نتاج وأعنى به الجانب اللغوى ، فقد عرف عن الشيخ أنه فقيه متصوف متكلم ، له مؤلفاته المشهورة فى الفقه والتصوف وعلم الكلام نظما ونثرا . أما مجال اللغة فبعيد عن الأذهان أن يكون للإمام الدردير فيه نتاج ، من هنا كان اختيارى لهذا الجانب من جوانب هذه الشخصية الحافلة .

وقد عمدت أول ماعمدت إلى بيان المؤثرات التى حدت بالشيخ إلى أن يتناول هذا الجانب بالتأليف والكتابة فيه فهدانى البحث إلى البيئة وحال اللغة فى عصره ، فالبيئة الأسرية والمعهدية والمناخ القرآنى والجو الدينى الذى عاش فيه كان ذا أثر واضح فى توجيه الوجهات الدينية واللغوية والتأليف فيها حين اكتملت له أدوات الكتابة وتوفرت لديه المادة العلمية ... ثم إن ما آل إليه أمر اللغة من ضعف قد يكون له أثره فى تحريك همته إلى أن يسهم بعلمه فى النهوض بها بما قدمه للمكتبة اللغوية من نتاج وفق فيه إلى حد كبير .

وقد وقفت على ما للشيخ من جهد فى هذا السبيل فوجدته يتصل بالجانب الدلالى من جوانب اللغة بأقوى الأسباب ، فقد خص دلالات الألفاظ القرآنية برسالة فى متشابهات القرآن » .

ومما يتصل بهـذا الجانب الدلالى ما ألفه فى « البيان » عموما و « الاستعارات الثلاث » خصوصا ، فإنه إذا ما عد البحث فى البيان ثمرة

البحث الدلالى كما يقول بعض الباحثين (١) ، كان هذان المؤلفان متصلين بالبحث اللغوى بسبب ما ، وعدا لهذا السبب من الجهد اللغوى للشيخ الدردير .

ولم تقف جهود الشيخ اللغوية عند الجانب الدلالى من جوانب اللغة . فقد ألف « رسالة فى طريق قراءة حفص فكان ذلك إسهاماً فى بيان مصدر هام من مصادر اللهجات العربية القديمة(٢) التى كانت منتشرة فى شبه الجزيرة وضنت علينا المصادر بالتعرف عليها أو عجزت بسبب قصور الرموز الكتابية عن تصويرها التصوير الدقيق . فكانت القراءات خير مايصور هذه اللهجات لاعتمادها — فى المقام الأول — على التلقى والعرض ، فكان ذلك أشبه بما عرفته الدراسات اللغوية الحديثة واعتمدت عليه من أجهزة التسجيل(٣) . لقد كان للشيخ الدردير كبير فضل حين أسهم بهذه الرسالة — فى هذا المجال الحيوى من مجالات الدراسات اللغوية ، هذا المجال الذى تعده الدراسات اللغوية الحديثة من أهم مجالات البحث اللغوى (٤) .

تلكم هى الجهود اللغوية للإمام الدردير . وهى جهود تعليمية نظرية بالدرجة الأولى ، وقد كان له إلى جانبها جهود عملية ، أعنى بها ما كتبه بقلمه من مؤلفات فى مختلف العلوم ، تعلم الناس منها بطريقة عملية رصانة الأسلوب وسلامة التركيب ودقة الدلالة فى زمن غلبت عليه الركاكة وساد ضعف التركيب وطغت العجمة على الأساليب فكان ما قدمه من نتاج علمى — نثراً أو نظماً — راعى فيه صحة الأداء اللغوى يعد من النتاج العملى والجهد اللغوى .

---

(١) د . تمام حسان . اللغة معناها ومبناها .

(٢) د . عبده الراجحى : اللهجات العربية فى القراءات القرآنية .

(٣) د . عبد محمد الطيب : اللهجات العربية فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ط سنة ١٩٨٢ .

(٤) المرجع السابق .

تلكم كانت الخطوط العريضة والإطار العام لهذا البحث عن جهود الشيخ الدردير اللغوية .

وغاية ما أرجوه أن أكون قد قاربت توفيقاً حرصت على أن يكون مناسباً لمنزلة الإمام المحتفى به .

والله من وراء القصد وهو يهدى إلى سواء السبيل

البيئة وأثرها فى نتاجه اللغوى :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » وقد كان الإمام الدردير نبات تربة صالحة ، فقد ولد ونشأ فى قرية « بنى عدى » وهى قرية غنية عن التعريف بما أنجبته من رجال برزوا فى العلم وتنافسوا فى تحصيله خاصة إذا كان العلم يمت إلى القرآن الكريم بسبب ، فعامتهم أهل القرآن وحملته فضلا عن خاصتهم ، وآية ذلك تلك الكثرة الكاثرة من الكتاتيب التى انتشرت فيها منذ القديم حتى يومنا هذا(١) يعنى القائمون عليها بتحفيظ كتاب الله الكريم ، كما يعنى قاصدوها — وهم كثرة — بحفظه والمحافظة عليه .

وإذا كان هذا حال القرية عموماً فكيف بالشيخ الدردير وقد كان أبوه أحد من أكسبوا القرية هذه الشهرة بما علم من أبنائها .

لقد تفتحت عينا الشيخ الدردير على بيت اتخذ عائله من الاشتغال بالقرآن والقيام على تحفيظه الصبية مهنة(٢) له . وما أجلها من مهنة ، فارتبط الشيخ بالقرآن طفلا وعاش فى جوه صبياً حيث كان المحيط الذى يتحرك فيه قرآنيا داخل البيت وخارجه حيث كتاب أبيه . وشأن من يعيش فى هذا الجو أن

---

(١) محمد على مخلوف . تاريخ بنى عدبات مخطوط بمكتبة المؤلف .

(٢) د . عبد الحليم محمود : أبو البركات سيدى أحمد الدردير ٣٧ .

يشغل باللغة على وجه من الوجوه لارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم . فإذا ما نمت معارفه نما معها تفكيره فى أمر هذه اللغة .

وهذا ما حدث لشيخنا الدردير حين خرج عن هذا المحيط الأسرى والقروى الضيق إلى رحاب أوسع وأعنى بهذا الرحاب الأزهر الشريف الذى كان فى ذلك الزمان — القرن الثانى عشر الهجرى — قبلة طلاب العلم وكعبتهم والملاذ الأوحد لعلوم الدين واللغة . فأقبل الشيخ على هذه العلوم بشغف يحصل منها ما أمكنه التحصيل وقد حضرها على خيرة العلماء ومبرزيهم(١) ينهل من فيض علمهم ما أهله لأن يكون فيما بعد أحد أعلام عصره (٢) ؛ إذ كان يمثل ثقافة العصر أصدق تمثيل كما وصفه بذلك الجبرتى : « شيخ الفروع والأصول الجامع بين المعقول والمنقول ، علامة الزمان والحامل فى وقته لواء العرفان(٣) » .

فإذا كان حفظه للقرآن الكريم قد جعله يتساءل عن متشابه ألفاظه وطرق تلاوته فألف فيهما عند ما اكتملت له أدوات البحث والتأليف ، فإن قراءاته فى كتب الفقه ورغبته فى شرح ما استغلق من كتبه — وذلك الشروح عمل لغوى إلى جانب كونه عملا فقهيا — حفزه إلى معرفة علوم اللغة فضلا عن أن رغبته فى فتح مغاليق كتب البلاغة التى هجر الطلاب قراءتها لصعوبة تحصيل مسائلها قد حفزته على درس كتب البلاغة فكانت رسالتاه فيها .

وأكاد أقول : ربما كانت رغبته فى الوقوف على سر إعجاز القرآن أحد الأسباب التى حملته على التأليف فى البلاغة .

---

(١) تاريخ الجبرتى ٣٣/٢ ط دار الفارس ببيروت .

(٢) د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٢٦٠/٥ .

(٣) الجبرتى : تاريخ الجبرتى ٢٧٤/٢ .

اللغة فى عصر الدردير :

عاش الشيخ الدردير فى القرن الثانى عشر الهجرى (من ١١٢٨ — ١٢٠١) وهو عصر يموج بالاضطراب السياسى وتسوده الفتن والتنافس على السلطان والتكالب على الحكم الذى توطأ فى سبيله كل القيم وتداس كل المبادىء ، فقد كانت مصر ولاية عثمانية يحكمها الوالى الذى يراقبه الديوان ويتطلع الاقوياء فيه إلى انتزاع الحكم منه ، وإلى جانب هذين كان السناجق من بقايا المماليك يحكمون الأقاليم (١) ويتبعون كبيرهم سنجق القاهرة و شيخ البلد ، الذى ينوب عن الوالى فى غيابه ويتطلع إلى أن يكون حضور الوالى كغيابه أى أن يكون الحاكم الفعلى كما كان الحال قبل أن يغزو العثمانيون مصر .

لقد كانت هذه الهيئات الثلاث لا يهمها من أمر البلاد سوى أن تحكم وتسيطر وتحصل على ماتستطيع من نفوذ وأموال وهى سبيل ذلك لا تتورع عن ارتكاب ما تراه مؤدياً إلى هذه الغاية ، فتدبر المكايد ولو أدت إلى سفك الدماء البريئة (٢) وكان من جراء ذلك وقوع كثير من المظالم على أفراد الشعب .

وإذا كانت العناصر المسيطرة من ترك ومماليك — يعيشون فى هذا الجو السياسى ، فهم منصرفون — بطبيعة الحال — عن كل ما من شأنه أن ينهض بالأمة وفى مقدمة أسباب النهضة العلم الذى تتبعه النهضة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية .

واللغة مرآة المجتمع تعكس صفحتها ما يتمتع به من تقدم وازدهار ، كما تعكس ما يعانيه من تخلف ، إذا كان هذا شأن اللغة كان لنا أن نتوقع ،

---

(١) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٢٧٥/٥ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ٢٨/٧ ، د . أحمد شلبى موسوعة التاريخ الإسلامى ٢٦٠/٥ .

ركوداً أصاب العربية بل جموداً نال منها . وكان لنا أن نتصور مدى ما وصلت إليه من ضعف .

لقد أصيبت اللغة العربية فى هذا العصر بما لم تصب به فى حياتها من ضعف مزر ممقوت، وذلك لأن الحاكم تركى ومنافسوه على الحكم مماليك ،وكلاهما ليست العربية لسانا له فلا ينتظر منهم رعايتها ، بل إن الأتراك كانوا حربا على العربية ، ويودون لو حلت التركية محلها مع أنها لغة دينهم الذى يعتنقونه (١) ولكن السياسة تعمل عملها حتى تنال من العقيدة أحيانا .

ثم أن الضعف الذى أصاب أوجه النشاط المختلفة ومظاهر الحياة المتعددة (٢) كان لا مفر من أن تظهر آثاره فى اللغة ، فأصاب الضعف عناصرها خاصة العنصر الدلالى الذى ظهر فيه بوضوح ، وإن كانت العناصر الأخرى لم تسلم منه فتخلى المتعلمون عن مراعاة سنن العربية فى كتاباتهم التى كانت أشبه بالمستوى الدارج . وصار التركيب مفككا وبدت العربية كما لو كانت تلبس ثوبا أجنبياً عنها لا يناسبها .

ثم إن مجافاة طلاب العلم لكتب التراث وتجافيهم لها ، وانصرافهم عن النظر فيها ، كان مما ساعد على فقدانهم الملكة اللسانية الفصيحة. فقنعوا فى طلب العلم بالمتون والمختصرات ، واكتفوا بشروحها وحواشيها والتقارير عليها بعد أن تهيبوا القراءة فى أمهات الكتب (٣) فانغلقت عليهم مسائلها وحجبت عن أفهامهم قضاياها وصارت العلوم بحاجة إلى من يقدمها فيحسن

---

(١) د. عيد محمد الطيب : اللغة العربية فى مواجهة الحياة . انظر العربية فى عهد الأتراك .

(٢) جورجى زيدان . تاريخ أدب العربية ٢٩٣/٣ ط الهلال ، عمر الدسوقى فى الأدب الحديث ١/١٠

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص١٩٦ .

تقديمها فى صورة تناسب العصر وضعفه ، وتلائم هذه النوعية من الطلاب ، فى صورة يسهل عليهم الإلمام بها دون أن تبتكر جديداً فكان قصارى جهد المؤلفين فى هذا العصر أن يلخصوا كتاباً أو يلخصوا علماً فى متن ثم يعودوا إليه بالشرح أو يعود عليه غيرهم بالتحشية والتقرير (١) وذلك ما فعله الدردير مع كثير من العلوم والكتب .

مؤلفاته اللغوية :

جاء فى ثبت مؤلفات الشيخ الدردير ما يؤكد أنه ألف فى اللغة وما له صلة بها كعلوم البلاغة (٢) غير أن هذه الكتب — للأسف الشديد — ضاع معظمها ، وفقد فيما فقد من مؤلفات الشيخ ولم يبق من أكثر هذه الكتب سوى أسمائها التى تشير إلى موضوعاتها وهى : -

١ — رسالة من متشابهات القرآن ، ذكرها الجبرتى فى تاريخه (ح ٢ ص ٣٤) ولم أستطع الحصول عليها بعد طول بحث عنها فى مظانها ، فهى فى عداد ما فقد من مؤلفات الدردير ويبدو من عنوانها أنها جعلت من دلالات الألفاظ المتشابهة فى القرآن الكريم موضوعا لها والدلالة أحد عناصر اللغة بل الغاية من تأليف الأصوات فى كلمات ثم تركيب الكلمات فى جمل هى أداء المعانى ، فالرسالة على هذا النحو من الفهم من نتاجه اللغوى المتصل بالجانب الدلالى .

٢ — رسالة فى طريق قراءة حفص وقد ذكرها كثير (٣) ممن ترجموا

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص ١٩٧ — ١٩٩ .

(٢) محمد على مخلوف . أبو البركات سيدى أحمد الدرديرى مخطوطه فى مكتبة المؤلف ، وكذلك أبو البركات . الإمام الدردير للدكتور عبد الحليم محمود وتاريخ الجبرتى . ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) د عبد الحليم محمود . الإمام أبو البركات سيدى أحمد الدردير .

الإمام الدردير ، ولم يكن حظ هذه الرسالة بأحسن من سابقتها ؛ إذ كانت في عداد المفقودات ونستطيع أن نرجح من عنوانها أنها كانت في موضوع له باللغة أوثق صلة ، فهي تتناول توثيق قراءة من القراءات المعتمدة ، والقراءات تمثل مصدراً هاماً من مصادر اللهجات ، بل لا أغالي إذا قلت إنها تمثل أهم المصادر العربية في التعرف على اللهجات العربية القديمة .

فالقراءات ـ كما نعلم ـ كانت تعني بالنسبة للعرب في صدر الإسلام التيسير عليهم في قراءة القرآن بما اعتادوا عليه من نظام لهجي . هذا التيسير الذي سمح(١) لهم به الرسول (ص) حين قال نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف فاقرءوا بما تيسر لكم(٢) فكانت القراءات من أوثق المصادر لعدة أمور في مقدمتها الوثوق بما جاءت به ثم إنها وصلت إلينا بطريقة أقرب إلى ما يعتمده الباحث اللغوي الحديث من سماع اللهجة من أصحابها وتسجيلها نظراً لقصور الرمز الكتابي عن تصوير اللهجة التصوير الدقيق فكانت القراءة وهي تعتمد على التلقي عن الشيخ ثم العرض عليه صورة صحيحة لما كانت عليه اللهجة في الزمن الأول .

ومع ذلك فإنها حين تكتب وتعتمد على الرمز الكتابي تفقد هذه الميزة . ولو أن الرسالة أفلتت من يد الزمن لكان حكمنا على موضوعها . وما قدمته من فائدة للهجات حكما موضوعياً لا مجال فيه للظن والحدس .

٣ — «رسالة في الاستعارات الثلاث ، ولم يشر إلى هذه الرسالة ممن كتبوا عن الشيخ الدردير سوى القليل ، فلعلها كانت جزءا من الرسالة الآتية في البيان . ولو بقيت هذه الرسالة لما كان هناك مجال للتعبير بلعل ولحل مكانها الحكم القطعي الذي لا يدع مجالا للاحتمال .

---

(١) في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي .

(٣) أبو البركات سيدي أحمد الدردير . د. عبد الحليم محمود .

٤ — « رسالة فى البيان » وقد أسماهـا الشيخ « تحفة الإخوان » وهى الرسالة التى بقيت(١) لنـا من مؤلفاته اللغوية أو مؤلفاته الوثيقة الصلة باللغة .

وموضوعها علم البيان من مجاز بأنواعه وتشبيه وكناية ، وهى جد مختصرة (٢) فهى رسالة لطيفة أى صغيرة جداً(٣) وقد أحس الشيخ بما جره الاختصار عليها من الغموض ، فشرحها ، ولم يكن الشرح بأكبر من المتن إلا قليلا . إذ يكاد يشرح الكلمة بكلمة فقد كان يهدف إلى توضيح معانيها وحل مبانيها(٤) .

وقد طبع المتن وشرحه على هامش حاشية الصاوى عليهما بعد أن رأى الغموض مازال عالقاً بهما بسبب الاختصار الشديد فأخذ على عاتقه توضيح ما غمض وبيان ما استعجم على عادة مؤلفى العصر(٥) .

ولم يكن الشيخ الصاوى وحده الذى اهتم بهذه الرسالة ، فقد عمد إليها محمد الأمين القرشى(٦) فنظمها وسمى المنظومة « روضة البيان فى تحفة الإخوان(٧) »

---

(١) طبعت هذه الرسالة بالمطبعة الأزهرية سنة ١٢٨٠ هـ

(٢) تقع فى أربع وأربعين صفحة من القطع الصغير على هامش حاشية الصاوى عليها ، فهى وشرحها وحاشيتها تقع فى هذا الحجم الصغير .

(٣) ص ١٣

(٤) ص ١٠

(٥) كان الفراغ من تأليف الحاشية سنة ١٢١٩ أى بعد وفاة الدردير بثمانية عشر عاماً .

(٦) رئيس جماعة التبشير الإسلامى فى السودان .

(٧) ط محمد على صبيح (د . ت) .

وقد قرظ هذه المنظومة الأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر فأثنى عليها وكان وقتذاك مدرسا بالمعاهد الدينية ، وكان مما قاله الناظم عنها :

رسالة البيـــان للدردير شيخ الشيوخ العالم النحرير
أضحت لهـذا الفن كالأساس مقروءة عنـد جميع النـاس
قـــد جمعت شوارد المجاز بغاية التوضيح والإيجـاز
وشـــرحها لذلك المؤلف كنز ثمين فى كتـاب فاعرف

الشيخ الدردير بتأليفه تحفة الاخوان وشرحها لم يضف جديداً كما يصرح هو بذلك ، بل كان يهدف إلى إتحاف إخوانه وإهدائهم هذا الـكتيب ، لعلهم يفيدون منه فتستقيم ألسنتهم وتصح عباراتهم التى كان — بلا شك — يضيق بالتوائها ويتبرم من ركاكتها حين يطلع عليها فى رسائلهم إليه(١) ، فـكأن ماوصلت إليه اللغة كان الدافع إلى تأليف هذه الرسالة وغيرها .

وربما كان السبب أيضا فتح ما استغلق من الـكتب الـكبرى فى علم البلاغة ، وكان أبرزها فى عصره السمرقندية . يفهم هذا مما صرح به فى ثنايا رسالته إذ يقول : « وتفصيل المذاهب فى المكنية والتخييلية وما يتعلق بهما مذكور فى السمرقندية التى جعلت هذه الرسالة فى الحقيقة مقدمة لها (٢) » ويعلق على ذلك الشيخ الصاوى قائلا : « من حيث الفن ، فإن الفن لا يسهل من

---

(١) محمد على مخلوف عن أبى البركات هذه الرسائل فى مخطوطة للأستاذ فى مكتبته اطلعت على بعض هذه الرسائل التى نقلها من بعض المخطوطات بمكتبة العياط ببنى عدى .

(٢) ص ٢٧ تحفة الإخوان للامام الدردير .

السمرقندية إلا بهذه المقدمة لكون السمرقندية صعبة غير موفية الأمثلة »(١).

وكما أشرت سابقا إلى أن جهد الشيخ الدردير لا يعدو تقديم المسائل البلاغية فى صورة موجزة دون إضافة، أشير أيضاً إلى أنه قد يتعرض أحيانا لمسائل لغوية وإن لم يكن فيها جديد؛ فإنها تشير إلى ماكان يتمتع به من معرفة دقيقة لقضايا اللغة فكلمة « المجاز » عنده من قبيل المشترك اللفظى إذ يراد بها معنيان: المجاز العقلى والمجاز اللغوى(٢).

ومما لاحظته فى ثنايا الرسالة أنه يرى بعض الألفاظ التى تعد من المشترك اللفظى مجازاً كلفظ العين مرادا به الرقيب فهو عنده من المجاز المرسل علاقته البعضية(٣)

ولهذا الكلام - عند فقهاء اللغة - وزنه، فإن كثيرا من الباحثين يضيقون بما يسمى بالمشترك اللغوى بأنواعه(٤) ومنهم من ينكره. ومن لا يستطيع منهم إلى إنكاره سبيلا حاول أن يهتدى إلى الأصل فيه فإذا عثر من ذلك على شئ فى بعض الكلمات سر به أيما سرور كهذا المثال الذى نحن بصدده. فإن من معانى « العين » الرقيب وكانت فى الأصل مجازا مرسلا علاقته البعضية وإنما أطلقت على الرقيب دون غيرها من الأعضاء لأنها أداة المراقبة.

---

(١) المرجع السابق والصفحة السابقة

(٢) ص١٥ .

(٣) ص٢٤ .

(٤) السيوطى: المزهر فى علوم اللغة: أبواب الترادف، الأضداد، المشترك اللفظى.

« إذ العين بعضه ففيه إطلاق البعض (كذا) وإرادة الكل »(١) . ويشترط أن يكون للجزء الذى يطلق على الكل من بين الأجزاء مزيد اختصاص ، فلا يجوز إطلاق اليد على الجاسوس »(١) .

وهذا يعنى أن بعض كلمات المشترك تستخدم فى الأصل استخداما مجازيا ثم يكثر استخدامها حتى تبلى العلاقة وتستهلك ويغفل الناس عنها ويصبح المعنى المجازى هو المتبادر فيظن أن إطلاق اللفظ على معناه المجازى من قبيل الحقيقة وأنه أصل فى المعنى — والأمر بخلاف ذلك — فتعد من قبيل المشترك اللفظى .

للبحث بقية

(١) ص ٢٤

الخلافة الإسلامية
نشأتها وتطورها

د. محمد نيسان

كانت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مهمتان فى حياته الأولى التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها قال الله تعالى « يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لايهدى القوم الكافرين »(١) ويقول أيضاً « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا »(٢) فهو بذلك مشرع عن الله ، والثانية كونه إماماً للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم ، يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر ، وإليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى إليه من الشريعة ، ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام ، كما كان قائدهم فى الحرب والغزو ، والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه وختم ذلك التشريع بقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »(٣) فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها(٤) .

والوظيفة الثانية هى موضوع بحثنا والتى عرفت بالخلافة أو الإمامة الكبرى كانت من أولى المشاكل التى واجهت المسلمين بعد وفاة نبيهم ،

---

(١) من سورة المائدة ٦٧

(٢) من سورة المائدة آية ٣

(٣) من سورة الفتح آية ٢٨

(٤) صور من حياة الرسول للأستاذ أمين دويدار ص٤٥٥ .

ويقول أبو الحسن الأشعرى « اختلف الناس بعد نبيهم فى أشياء كثيرة ، فصاروا فرقاً متباينين ، إلا أن الإسلام يجمعهم (١) ، وقد اختلف الناس فى نوع الحكم بعد رسول الله، لأن القرآن الكريم لم يشر أى إشارة إلى بيان هذا النوع من الحكم ، وكذلك الرسول الكريم لم يؤثر عنه نص صريح وقاطع فى مسألة نوع الحكم ، فلم يعين من يخلفه أو البيت الذى يكون منه الخليفة ولا الطريقة التى ينقل بها الاستخلاف، وشاء الله ورسوله ترك أرغام الأمة الإسلامية على كيفية خاصة فى الحكم أو تعيين الحاكم ، أو البيت الذى تختار منه ، اكتفاءاً بما فى القرآن والسنة من القواعد الكلية التى يقوم عليها النظام العام ، وقد رسم للحاكمين بطريق التحديد مبادىء الحكم الصالح ، الذى يقود الجماعة إلى الخير والرخاء والسلام ، وهو الحكم بالحق والعدل والمساواة ، وقد وكل ماعدا ذلك إلى الأمة ، تختار حاكمها كما تشاء بالطريقة التى تراها ، ومن البيت الذى تريده فى كل زمان ومكان ، ضرورة أن الظروف والأحوال تتغير والمجتمعات تتطور كما تختلف البيئات والمجتمعات، ومايصلح اليوم قد لا يصلح غداً وما كان بالأمس غير صالح ، قد يكون غدا صالحاً فى الأمة ، فالأمة أعرف بدنياها تشكلها كما تشاء ولا ضرر من ذلك مادام الدستور العام قائماً مرعياً موجها للحاكمين والمحكومين، ولذلك كان التشريع الإسلامى فى هذه الناحية فى أسمى مراتب الكمال ، وما أعظم جواب أبى بكر الصديق رضوان الله عليه « لمن قال من المسلمين ألم يترك رسول الله نصاً أولم يسم الخلافة لأحد ؟ قال أبو بكر إن النبى خلى إلى الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين »(٢) على أنه ينبغى ألا يغيب عنا أمر ذو بال ، وهو أن الصحابة رضوان الله عليهم من مهاجرين وأنصار قد اختلفوا فى بيعة السقيفة اختلافاً كبيراً حول اختيار الحاكم ، وهم علماء الأمة الأول

---

(١) السلطات الثلاث دكتور سليمان الطماوى ص٢٤٧ .

(٢) الأحكام السلطانية الماوردى ص ٦٤ .

الذين تلقوا عن الرسول بهجة الدين وتفهموا عنه كل شيء ، أفلو كانوا يعرفون نصاً من القرآن الكريم أو من الحديث الشريف من النصوص الملزمة الواجبة الطاعة أكانوا يخرجون عليه ولا يلتزمونه(١)؟ ثم ألا يدل اختلافهم حول نوع الحاكم على أنها منصب من شأن الأمة أن تقرر مصيره حيث لا يجدون ملزمه ، إذن فقد كان ترك مسألة الحكم بدون تحديد هو فى ذاته اعتراف بالرأى العام للجماعة أو كما تقول فى العصر الحديث إرادة الأمة ، إن الدولة الإسلامية الأولى قد ظهرت ببزوغ فجر الإسلام وأعطت للعقل البشرى دوره فى الحياة من حيث النمو والادلاء بالرأى دون أن تضع قيوداً عليه ، فقد جعلت نظام الحكم يتغير فى صور متعددة ، فهو فى عهد الرسول الكريم غيره فى عهد الخلفاء الراشدين غيره تماما فى عهد بنى أمية مختلفاً فى عهد بنى العباس ومن جاء بعدهم ، ولقد أجمل هذه الحقيقة التاريخية وأبرزها أجمل إبراز المورخ ابن خلدون فهو يرى أن الخلافة قد مرت بعدة مراحل منها .

أولا : مرحلة الخلافة القائمة على أساس الدين ، وهى ما يطلق عليها الفقهاء الخلافة الكاملة وهو يصف هذه المرحلة بقوله « إن الأمر كان فى أوله خلافة ووازع كل واحد فيها من نفسه هو الدين ، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم(٢) .

ثانياً : وهى تحول الخلافة إلى ملك ولكنه ملك يقول على دعائم الدين ويصف ابن خلدون هذه المرحلة حيث يقول : صار الأمر إلى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه ، ثم انقلبت عصبية وسيفاً « وهكذا كان الأمر لعهد معاوية والصدر الأول من خلفاء بنى العباس .

ثالثاً : غلبت معانى الملك على الخلافة ويصف ابن خلدون هذه المرحلة

---

(١) النظريات السياسية فى الإسلام ضياء الريس ص ٢٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ .

بقوله : ثم ذهبت الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكا بحتا ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت فى أغراضها من القهر والتغلب فى الشهوات وهكذا كان الأمر فى بنى أمية وبنى العباسى أيضاً .

رابعاً : اندثار معانى الخلافة كلية وتحولها إلى ملك خالص أو فى هذا المعنى يقول ابن خلدون ، « ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم ، وبقى الأمر ملكا ، كما كان الشأن فى ملوك العجم فى فارس والروم يدينون بطاعة الخليفة تبركا ، والملك بجميع ألقابه ومناصبه لهم ، وليس للخليفة منه شيء » .

السمات المميزة لعهد الخلفاء الراشدين :

استطاعت الأمة الإسلامية فى البيعة الخاصة والعامة ، أن تقنن على هدى القرآن وسنة الرسول الكريم ، أول مؤسسة للدولة الإسلامية وأطولها عمرا وهى « الخلافة الكاملة » لأن حكم الخلفاء التزم التزاماً شديداً بالسوابق ، التى تقررت فى سقيفة بنى ساعدة وبالسير على الصراط المستقيم للدين وتعاليم النبى الأمين ، وأوضح الفقهاء أن تقنين نظام الخلافة الكاملة قد تقرر وفق الأسس الآتية :

أولا : إقامة الخلافة واجبة ومقدسة على ما سواها إذ اتضح فى سقيفة بنى ساعدة ، أن الجميع مهاجرين وأنصارا كانوا برغم تباين آرائهم متفقين على ضرورة إقامة رئيس للدولة الناشئة يخلف الرسول الكريم ، ومما يؤيد ذلك . سئل أحد الصحابة : أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل فمتى بويع أبو بكر ؟ قال : يوم مات الرسول الأعظم كره الناس أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة(١) .

---

(١) مروج الذهب المسعودى جـ ٢ ص ٣٣٠ ، السلطات الثلاث د الطماوى ص ٤٢٠ .

ثانياً : تحديد معنى النظام السياسى الجديد ، ومعناه على نحو ما قاله أبو بكر وهو يخاطب المسلمين : « لابد لكم من رجل يلى أمركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم(١) » . فأوضح أبو بكر أن الخلافة نظام يتولى صاحبها رعاية التراث الدينى والمدنى ، وذلك بالحفاظ على الدعوة الإسلامية ونشرها والإشراف على تماسك المجتمع الإسلامى الجديد فى مجال الدين والدنيا سواء ، فالخليفة ينظر فى مصالح الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الدنيوية والدينية(٢) » .

ثالثاً : إقرار الانتخابات الحرة قاعدة للخلافة وليس نظام الوراثة ، وجمعت قاعدة الانتخاب وفق السوابق فى اجتماع سقيفة بنى ساعدة ثم فى حكم الخلفاء الأربعة أنفسهم بين المبادىء الإسلامية والتقاليد العربية .

رابعاً : تقرير حق الأمة فى اختيار الخليفة عن طريق الجماعة التى اصطلح الفقهاء على تسميتها باسم أهل الحل والعقد ، وللنص على حق الأمة فى الرقابة والمناقشة عند إتمام اختيار الخليفة ، إذ لم ينفرد أهل الحل والعقد باختيار الخلفاء إلا بعد أن تعتمده الأمة فى المسجد الجامع فى اليوم التالى على إتمام البيعة .

خامسا : تحديد سلطة الخليفه بالرأى العام مع تقيدها أيضا بالدستور العام وهو القرآن الكريم وسنة الرسول العظيمة ، وتجلى احترام الخلفاء لهذا الالتزام فى الخطب العامة التى كانوا يلقونها عقب إتمام البيعة العامة ، وهو ما أطلق عليه تحديد برنامج الحاكم الجديد » (٣) . وفى ذلك يقول

(١) نظام الحكم الإسلامى د . محمود حلمى ص ٦٧ .

(٢) الأحكام السلطانية الماوردى ٣ .

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٣١٠ ، الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٣١٠ ، والنظم الإسلامية حسن إبراهيم ص ٢٢ ، على إبراهيم حسن .

الخليفة الأول أبو بكر الصديق : أيها الناس قد وليت عليكم واست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أخطأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله الخ »(١) .

الخلافة فى اللغـــة :

الخليفة لفظ مأخوذ من الخلافة ، والخلافة مصدر خلفه يخلفه ، أى جاء بعده أو ناب عنه ، ولقد تكرر ذلك اللفظ فى كثير من آيات القرآن الكريم ؛ ومنها قول الله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى »(٢) وتأتى الخلافة بمعنى خليفة ومخلوف وصيغته « فعيل » وتأتى بمعنى مفعول مثل جريح ومعناه مجروح(٣) وقد حمل بعض المفسرين عليه قول الله تعالى ... « إنى جاعل فى الأرض خليفة »(٤)

وهذا المعنى يوضح للقارىء الكريم أن خليفة معناه مخلوف أى يخلفه فى الأرض أهله وبنوه بعده ، ومعنى خليفة يتضمن معنى آخر ، فخليفة بمعنى خالف وصيغته فعيل تأتى أيضا بمعنى فاعل مثل عليم بمعنى عالم وقدير بمعنى قادر ، وأورد بعض المفسرين فى الآية الكريمة « إنى جاعـــل فى الأرض خليفة »

أن الخليفة من هذا النوع ، على أنه كان قبل آدم عليه السلام فى الأرض الجن أو الملائكة وأنه خلفهم فيها (٥) وقال بعضهم إنه خليفة الله على طريق

---

(١) تاريخ الامة الإسلامية محمد الخضرى ص ١٧٠ .

(٢) الاعراف آية ١٤٢

(٣) لسان العرب والمصباح المنير باب خلف .

(٤) سورة البقرة آية ٣٠

(٥) مجلة العربى مقال للاستاذ عبد الستار فراج

المجاز بمعنى أنه يقوم بحقوق الله تعالى فى خلقه ، أما أكثر المفسرين مثل البيضاوى فيقول أنه ليس خليفة الله وحجتهم فى ذلك ، أنه إنما يستخلف من يغيب أو يموت والله تعالى باق موجود على الأبد لا يغيب ولا يموت(١)

ولفظ خليفة دخلت عليها تاء التأنيث فى حين تطلق على المذكر والخليفة فى غالب الأحوال لا يصح إلا رجلا ، ولكن علماء اللغة عللوا دخول تاء التأنيث فى خليفة على سبيل المبالغة ، واستدلوا على ذلك بكلمة علامة أى كثير العلم وراوية كثير الرواية وقيل إن تاء التأنيث جاءت لتأنيث اللفظ ولا يراد بذلك معنى اللفظ (٢)

ثم ذكر البيضاوى فى تفسير الخليفة من يخلف غيره وينوب عنه والهاء فيها للمبالغة (٣)

الخلافة فى القرآن الكريم

فالخلافة مقيدة بقوانين شرعية ، يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن الرسول صاحب تلك الشريعة السمحاء ، ومن هنا يرى ابن خلدون « أن الخلافة وكالة عن النبى فى السلطة السياسية والدينية ، ولا يمتاز الخليفة عن عامة المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارسا للدين (٤)

فالقرآن الكريم يتضمن عبارات تعبر عن الخلافة بعبارات عامة ليس فيها تخصيص أو تحديد ، وسوف نعرض الآيات التى ذكرت فى القرآن

(١) تفسير البيضاوى ص ٢٥
(٢) مقالة للأستاذ عبدالستار فراح فى مجلة العربى
(٣) تفسير البيضاوى ٢٥
(٤) جورجى زيدان « تاريخ التمدن الإسلامى ١٢٧/١

الكريم وتتضمن معنى الخلافة فنها قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم »(١)

وقد شرح البيضاوى هذه الآية الكريمة فقال « ليجعلهم خلفاء متصرفين فى الأرض تصرف الملوك فى مماليكهم وهو جواب قسم مضمر تقديره « وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم أو الوعد فى تحققه منزل منزلة القسم كما استخلاف الذين من قبلهم يعنى بنى إسرائيل استخلفهم فى مصر والشام بعد الجبابرة (٢)

وهذا المعنى السابق لا يحمل بين عباراته المعنى المقصود من كلمة خليفة ومنها أيضا قوله تعالى « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما أتاكم »(٣) ومعنى هذه الآية الكريمة يخلف بعضكم بعضا أو خلفاء الله فى أرضه ، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين (٤) ، ويتضح من هذه الآية الكريمة أن كلمة خلفاء لا يقصد بها الخليفة المعروف فى التاريخ الإسلامى (٥)

ومنها ايضا قول الله تعالى « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح »(٦)

---

(١) من سورة النور أية ٥٥

(٢) البيضاوى ص ٤٨٩

(٣) من سورة الأنعام أية ١٦٥

(٤) البيضاوى ص ٢٢١

(٥) غروب الخلافة الإسلامية د / الخربوطى ص ٥

(٦) من سوره الأعراف ص ٦٩

وشرح هذه الآية الكريمة فبين أن قبيلة عاد فازت بالنعم التى تمتع بها قوم نوح من قبلهم وليس فيها معنى الخليفة المراد شرحه وتوضيحه فى هذا البحث .

وهناك آية كريمة أخرى تحدثنا عن نبى آخر وهو صالح الذى رفض قومه الإيمان به ، فيدعوهم ليعترفوا بالبركات والنعم الوفيرة التى أرسلها الله لهم ، وهى محاورة هادفة كانت تعتمد على المنطق السليم وتتجه إلى الغاية الكريمة ، قال الله تعالى : واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »(١)

ويقول أيضا « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلا ما تذكرون » (٢)

وأخذ قوم صالح يتخبطون بين مزالق المنطق السقيم والحجج الداحضة ويقودهم فساد العقيدة ولؤم الطبع إلى الدرك الاسفل، فينحدرون فى تفكيرهم إلى الوهم والهذيان ولقد سجل القرآن الكريم هذه المحاورة فى كثير من سوره ولا تحمل هذه الآيات السابقة معنى كلمة خليفة المقصود فى هـــذا البحث ، وإنما جرت سنة الله فى أنبيائه ورسله بأن يظهر على أيديهم من الآيات والمعجزات ما يثبت به القلوب القلقة ، ويرشد النفوس الحائرة ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم .

ومن آيات القرآن الكريم أيضاً قول الله تعالى « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله»(٣)

---

(١) سورة الأعراف رقم ٧٤ (٢) سورة النمل أية ٦٢

(٣) سورة ص ص ٢٩

وهذه الآية الكريمة توضح معانى جليلة ورشيدة لكل حاكم يتولى أمر جماعة وقد وجه الله الحكام جميعاً بما أمر به نبيه داود ، حتى يمكن أن تتهيأ لهم البيئة الصالحة والمجتمع السعيد فتهدأ نار البغضاء والشحناء ، وتجف الارض من الدموع والدماء ويعيش الناس فى جو مزدهر بالأمن والسلام ، ومما يوضح ذلك باقى الآية الكريمة حيث يقول الله تعالى « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ويسرف بعض المفسرين عن أنفسهم وعلى الناس حينما يزعمون أن داود كان متزوجاً لتسع وتسعين امرأة، وأنه أغرم بامرأة رجل أجنبى عنه ، وأراد أن ينزعها من تحت يده ليكمل بها المائة، والواقع أن هذه الرواية من الروايات الموضوعة التى يراد بها التشكيك فى أنبياء الله الذين اختارهم واصطفاهم ، وهـــذه القصة التى ذكرها الله قصة رجلين حقيقيين يملك أحدهما تسعا وتسعين نعجة ، ويملك الآخر نعجة واحدة، وقد نازعه فيها صاحب التسع والتسعين ، وقد دخل هذان الخصمان على داود من غير المدخل المعتاد وفى غير وقت جلوسه للحكم ، ففزع منهما ظانا أنهما يريدان اغتياله فلما ظهر له أنهما إنما جاءا فى خصومة ليحكم بينهما وأن ماظنه غير واقع استغفر ربه من أجل هذا الظن ، وهذه صورة صادقة عن نبى الله داود لتكون مضرب المثل ومناراً يهتدى به الحاكم فى حكمه (١) ومن الآيات التى ذكرت فيها كلمة خليفة قول الله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون(٢) » وهذه الآية لاتحمل بين طياتها المعنى المراد بكلمة خليفة لأن الاستخلاف إنما هو فى حق الغائب أما الحاضر فلا ، ولا يجوز عقلا أن يكون آدم خليفة عن الله سبحانه وتعالى وهو حى موجود فى كل زمان ومكان .

---

(١) تاريخ الانبياء : د الطيب النجار ص ٤١ .

(٢) من سورة البقرة آية « ٣٠ » .

وإنما أخبر الله ملائكته قبل أن ينزل الإنسان الأول إلى هذه الأرض بأنه سيجعل فيها خليفة له يتصرف فيها بأمره ، وينظم أمورها بإرشاده ويعيش عليها هو وذريته ، وظنت الملائكة أن أى مخلوق غيرهم سوف يكون مصدراً للفتنة والفساد ، وغفلوا عن علم الله سبحانه بما كان وبما سيكون وعن كلمته فى هذا الكون المترامى الأطراف :

ولا يخفى أن استخلاف آدم فى الأرض يشتمل على معنى سام من الحكمة الإلهية التى خفيت على الملائكة، فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة فى الأرض لما عرفت أسرار هذا الكون، ولا استخرجت خبايا الأرض وكنوزها ،لأن الملائكة لا يحتاجون بطبيعتهم إلى ما يحتاج اليه الإنسان من زروع وثمار ، وهى تلك الأشياء التى سخرها الله للإنسان يقضى بها حاجاته ورغباته(١) » .

وقد أثارت هذه الآية كثيرا من جدال الفقهاء ، وكأن كلمة خليفة تعنى هنا شيئا ما ، أكثر من مجرد خلف فيما يقول بعض الفقهاء إنه عندما أعلن الله تعالى عن خلق آدم دعاه خليفة لأن آدم كان خليفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الأرض قبل خلق الإنسان ولكن بعض الفقهاء يفسرون كلمة خليفة بمعنى وكيل ونائب وبديل وهكذا يذهبون إلى أن آدم وداود سميا باسم خليفة إذ كان كل منهما على الأرض نائبا عن الله فى هداية الناس وإنذارهم بما أمر الله (٢) .

وعلى ضوء ما سبق يتضح أن القرآن الكريم لا توجد من بين آياته آية تدل صراحة على نظام الحكم الذى يخضع له المسلمون بعد وفاة الرسول الكريم ، إلا أن القرآن الكريم يأمر المسلمين بأن يطيعوا أولى الأمر فمن هذه الآيات قول الله تعالى :

---

(١) تاريخ الأنبياء د. الطيب النجار ص ٦٠ .

(٢) غروب الثلاث الإسلامية د. الخربوطى ص ٧٠ .

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(١) ويرى بعض المسلمين وجوب نصب الخليفة ، وابن خلدون يقول فى مقدمته إن هذا مما اتفق عليه الإجماع والدليل على ذلك إجماع الصحابة يوم السقيفة بعد وفاة الرسول على بيعة أبى بكر ثم استخلاف عمر ثم عهد عمر لأهل الشورى باختيار خليفة منهم (٢) ولكن الشىء الواضح والواقع هو أن أحداً من العلماء المفسرين لا يستطيع أن يقيم الدليل القاطع على وجوب ذلك بآية من القرآن الكريم وتريد طبعاً آية صريحة لا سبيل إلى الشك فى مدلولها ومعناها(٣) وخلاصة القول أن الخلافة أطلقت فى العرف العام على الزعامة العظمى وهى الولاية العامة على الأمة والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها ولقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال : لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله (٤) .

الخلافة فى الحديث الشريف :

سبق أن وضحنا أن الخلافة الإسلامية الكاملة هى فى اللغة مصدر خلف ومن يخلف شخصاً آخر سمى خليفته ، لذلك سمى من يخلف الرسول ﷺ خليفة ، يخلفه فى إجراء الأحكام الشرعية ويخلفه فى رئاسة المسلمين وفى أمور الدنيا والدين معاً ، وهذا يتفق مع رأى المؤرخ ابن خلدون حيث يقول « الخلافة ، حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها(٥) » .

(١) النساء آية ٥٩

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥ .

(٣) حسن ابراهيم تاريخ الإسلام حـ ص ٢٤٨ .

(٤) النظم الاسلامية : د. ابراهيم البدرى .

(٥) مقدمة ابن خلدون تحقيق وتعليق الدكتور على عبد الواحد وافى ص ٥١٢ .

ومما يؤيد ذلك رأى الماوردى حيث يقول : إن الخلافة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين والدنيا(١) » . وبناء على ماتقدم يتضح لنا أن الخلافة ليست حقاً شخصياً أو امتيازاً لفرد أوفئة أوقبيلة معينة ، ولكنها وظيفة تؤدى ، والعبرة فيها بأداء تلك الوظيفة ، « فالخلافة رئاسة للدولة تخضع فى مباشرة سلطانها للقانون الإسلامى الذى يستمد مبادئه من القرآن والسنة ، والذى يمكن لأحكامه أن تنمو وتتطور - وفقاً لظروف المجتمع - دون أن تخرج عن المبادىء العامة التى يقرها القرآن والسنة(٢) » والمراد بالسنة أوالحديث ، ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أوفعل أوتقرير ، وبعد عصر الرسول ﷺ ضم إلى الحديث ماورد عن الصحابة ، فالصحابة كانوا يعاشرون النبى صلى الله عليه وسلم ويسمعون قوله ويشاهدون عمله ويحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وجاء التابعون بعده فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، فكان من الإخبار عن رسول الله ﷺ وصحابته « الحديث(٣) » .

وللحديث قيمة كبرى فى الدين تلى رتبة القرآن ، إلا الأحاديث الموضوعة التى ظهرت بعد وفاة النبى الكريم وقد حمل الوضاع على الوضع أمور أهمها ، الخصومة السياسية بين على ومعاوية وبين الأمويين والعباسيين ، وكذلك الخلافات الكلامية والفقهية وغيرها ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الواضعون فى تفضيل القبائل العربية ، وذلك أن هذه القبائل كانت تتنازع الرئاسة والفخر والشرف ، فوجدوا فى الأحاديث بابا يدخلون منه إلى المفاخرة ، كالذى وجدوه فى الشعر ، فكم من أحاديث وضعت

---

(١) أبو الحسن الماوردى / ٣ .
(٢) نظام الحكم الإسلامى د/ محمود حلمى / ٥٨ .
(٣) فجر الإسلام : أحمد أمين / ٢٠٨ .

فى فضل قريش والأنصار وكم من أحاديث وضعت فى تفضيل العرب على العجم والروم فقابلها هؤلاء بوضع أحاديث فى فضل العجم والروم والحبشة والترك(١) » .

وقد ظهرت بعض أحاديث نبوية تتناول الخلافة الإسلاميه ، وتقرر أن الخليفة يجب أن يكون من قريش ، وهى القبيلة العربية التى ينتسب الرسول إليها .

وقد توافر هذا الشرط فى الخلفاء الأمويين فى دمشق والخلفاء العباسيين فى بغداد والخلفاء الفاطميين فى القاهرة وهذه الأحاديث تتفق فى المعنى وإن اختلفت فى اللفظ ومنها الأئمة من قريش لا يزال على الناس وال من قريش ، الخلافة فى قريش والحكم فى الأنصار ، والدعوة فى الحبشة — أبرارها أمراء وفجارها أمراء ، ولقد أعجبت برأى للأستاذ الدكتور على حسنى الخربوطى فى كتاب له بعنوان غروب الخلافة الاسلامية(٢) فسوف أعرض له يقول : نعم ورد فى السنة حديث بأن الخلافة فى قريش وهى قبيلة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن صح هذا الحديث وجب حمله على أنه من باب الإخبار بالغيب لا من باب الأمر باتخاذ الخلفاء من قريش خاصة ، أو حمله على أنها فى قريش مادامت قريش أقوى عناصر الأمة الاسلامية وأقدرها على حفظ كرامة الخلافة ، لأنه لو كان قصد النبى أن يكون الخلفاء من قريش لقال : ذلك لجمهور الأنصار وهم القوم الذين ينتظر منهم الطموح الى خلافة النبى ، ولما كانت الأنصار تلكأت فى البيعة لأبى بكر بعد وفاة الرسول ، وقد كاد الخلاف يفضى إلى حرب المهاجرين والأنصار ، إن الإسلام دين عام شرعه الله ليجمع العالم كافة ، وقد حقق الله فيه امتيازات

---

(١) فجر الإسلام / ٢٢٠ أحمد أمين .

(٢) غروب الخلافة الإسلامية د الخربوطى / ٩ .

الجنسيات والقرابات وقرر لنا وجوب احترام صوت الأمة، والاعتداد برأيها والرجوع إليها بقوله صلى الله عليه وسلم « مارآه المسلمون حسن فهو حسن » فكيف يعقل أن ديننا هذا شأنه ، يحصر أمر خلافة الأرض فى قبيلة واحدة ، قد تدور عليها الأدوار ، فتصبح أثراً بعد عين قال تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس (١) » .

وما ارتفعت اليوم أمة إلا وانخفضت غداً ، وقريش ما خرجت عن دائرة البشر ، فهل يعقل أن الدين العام الذى أنزل ليضم بين جناحيه الأبيض والأسود ، يعلق أمر الخلافة على قاعدة غير ثابتة ؟

وقد قال الله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (٢) » .

وكما وضحنا سابقاً أن آيات القرآن الكريم لم توضح مسألة الحكم بعد رسول الله فكذلك الدكتور الخربوطى ، يقول إن القرآن الكريم لم يعرض لمسألة الحكم بعد رسول الله ، فإن الحديث لم يبحث أمر الخلافة بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن رسول الله كان رسولا وكان حاكما سياسيا ، فى الوقت نفسه قضاؤه بين الناس وتعيينه بعض العمال إلخ ، يمكن اعتبارها من آثار الدولة ومظهرا من مظاهر الحكومة الرشيدة ، ونخرج من هذا العرض بأن الحديث الشريف لم يتعرض لتحديد نوعية الحاكم أو الحكومة التى يمكن أن تكون بعد وفاة النبى الكريم .

ويكفى أن الحديث الآتى يوضح عدم تدوين الحديث فى عهد النبى الكريم « مارواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا

(١) من سورة آل عمران آية ١٤٠ .

(٢) من سورة الحجرات آية ١٣ .

عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار(١) » .

الخلافة والخوارج :

واسم الخوارج جاء من خروجهم على على بن أبى طالب وصحبه وإن كان منهم من يشتق اسم الخوارج من الخروج فى سبيل الله أخذاً من قوله تعالى : « ومن يخرج من بيتـه مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله(٢) » وسموا أيضاً الشراة ، أى الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله(٣) » وقد حاربهم على فى الوقعة الشهيرة بوقعة النهروان (٤) وهزمهم وقتل منهم كثيرا .

ونظرية الخوارج للخلافة قائمة على أساس واحد وهو الاختيار الحر ، وإذا اختير الخليفة فليس بالضرورة أن يكون قرشياً بل يصح أن يكون من قريش ، ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً .

وإذا تم الاختيار كان الخليفة رئيسا للمسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله ، وإلا وجب عزله ، ولهذا أمروا عليهم من اختاروه منهم وسموا عبد الله بن وهب الراسب أمير المؤمنين ولم يكن قرشيا وإنما هو من راسب حى من الأزد ، وكذلك أمراؤهم من بعده (٥) » .

---

(١) فجر الإسلام ، أحمد أمين / ٢٠٩ .

(٢) من النساء آية ١٠٠ .

(٣) البقرة ٢٠٧

(٤) وقعة النهروان — على الهاشمى / ٩٩ .

(٥) فجر الإسلام : أحمد أمين / ٢٥٨ .

الخلافة والشيعة :

ولقد ظهرت البذرة الأولى للشيعة بعد وفاة النبي الكريم ؛ حيث رأى مجموعة من الصحابة أن أهل بيت النبي أولى أن يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس عم النبي ، وعلى ابن عمه ، وعلى أولى من العباس ، وأصحاب هذا الرأى هم أبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، وجابر بن عبد الله ، والعباس وبنوه ، وأبى بن كعب وغيرهم (١) ، وكان حزب الشيعة ككل حزب ينضم إليه المخلص لمبادئه ، ومن يرى المنفعة فيه ، فتشيع قوم إيماناً بأحقية على فى الخلافة وولده ، وتشيع قوم كرهوا الحكم الأموى ثم العباسى لأنهم ظلموا منه ، أو أن قوما من قبائل العرب تعصبوا للأمويين فكان العداء القبلى يتطلب أن يكون خصومهم فى الجانب الآخر ، وتشيع كثير من الموالى ، وهكذا اعتنق التشيع طوائف مختلفة لأسباب مختلفة بل اعتنقه أيضاً قوم أسوأ من هؤلاء ، قوم أرادوا الانتقام من الإسلام فتظاهروا بالقوطية خديعة ومكراً.

وقد انقسم الشيعة إلى فرق وأحزاب ، وأساس الاختلاف بينهم يرجع إلى اختلاف فى المبادىء والتعاليم ، فنهم المغالى فى التشيع الذى يسبغ على الأئمة نوعا من التقديس ويبالغ فى الطعن على من خالف علياً وحزبه إلى درجة الكفر ومنهم المعتدل المتزن الذى يرى أحقية الأئمة فى اعتدال وخطأ من خالفهم خطأ لا يبلغ الكفر ، واختلفت الشيعة فيما بينهم على الأئمة من ذرية على(٢) ، فرأى الإمامية أن الإمامة أو الخلافة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، تتولى تعيين القائم بها ، وإنما هى ركن من أركان الدين ، وقاعدة من قواعد الإسلام ، فلا يجوز لنبي إغفالها وتفويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر

---

(١) فجر الإسلام ، أحمد أمين ص ٢٦٧ .

(٢) ضحى الإسلام جـ٢ ص٢٠٠.

والصغائر ، ومن عينه النبي يجب أن يعين من يخلفه ، وهكذا كل إمام يعين من يخلفه فى الإمامة ، والإمام عندهم معين بالذات لا بالوصف كما هو عند الزيدية ولا باختيار الأمة ؛ كما هو عند أهل السنة ، وانتهى الرأى إلى أن إمامة على كرم الله وجهه — ثبتت بالنص عليه بالذات من النبى وسندهم فى هذا : حديث اعتقدوا أنه صحيح يروونه عن النبى ﷺ «إن تؤمروا علياً ولا أراكم فاعلين، تجدوه هاديا مهديا يأخذبكم إلى الصراط المستقيم (١) وكذلك: من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »

وفى رأينا أن فكرة الشيعة عن الخلافة ليست صحيحة ، فالثابت من خلال العرض السابق للخلافة الإسلامية أن النبى الكريم لم يوص بالخلافة لشخص معين ولا نوع الحكم الذى سوف يكون بعده؛فقد روى أن العباس دعا على بن أبى طالب للدخول إبان مرضه ليسأله عن شأنهما فى العهد ، فأبى على ذلك وقال : إنه إن منعنا منها فلا نطمح فيها آخر الدهر (٢) » .

هذا وإذا كان هناك عهدأو وصية بالخلافة لعلى كما يدعى حزب الشيعة، لما كان هناك داع المناقشة والمشاورة فى يوم السقيفة بعد وفاة النبى وكذلك لما كان هناك داع لمشاورة الصحابة السبعة لاختيار عمر بن الخطاب وقد اشترك على بن أبى طالب فى هذه المشاورة ثم قبل على حكم الجماعة حين اختاروا عثمان بن عفان ، كل هذا يؤيد أن النبى لم يعهد بالخلافة لأحد، بل ترك الأمر شورى للمسلمين يختارون الخليفة بإرادتهم واختيارهم الحر المطلق .

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى الشيخ إبراهيم الدسوقى ص٢١٣

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩

اللغة العربية وآدابها
بين
الإنسانية والعالمية

د. على أحمد العريني

أدبنا العربى أدب عالمى رائد وذلك لاتجاهه الإنسانى. وتفوق اللغة العربية، التى حملته فى أمانة وصدق، عبر الأجيال فهى من اللغات العالمية الواسعة الانتشار، وليست لغة قومية ضيقة، وإنما هى فى طبيعة تكوينها لغة إنسانية، اكتسبت خلال العصور. المقدرة على أن تكون أداة اتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان ووسيلة قوية لنشر روح الإنسانية بين الناس.

فهى لغة الدين حيث يقطن المسلمون على ظهر الارض.

وهى لغة العرب حيث يقطن العرب من الخليج شرقا ... إلى المحيط غربا ...

انتقلت من قلب الجزيرة العربية، تحمل السمات الإنسانية فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ... لتكون لغة الشام والعراق، ومصر، والسودان وليبيا وتونس والجزائر، والمغرب ثم عبرت جبل طارق حيث الاندلس قديما فكانت لغة الحديث والعلم والادب أكثر من ثمانية قرون، ولغة إقليم (صقلية) جنوب ايطاليا أكثر من أربعة قرون، ولغة الدولة الغزنوية فى الهند وأفغانستان والدولة السامانية، فيما وراء النهر أكثر من ثلاثة قرون من الزمان لغة الحديث والعلم والثقافة.

فقد حفظ لها الدين الإســـلامى البقاء والخلود ، رغم تقلص ظلها فى الاندلس وما وراء النهر ؛ وصقلية ، والهند . وأفغانستان كلغة حديث وتخاطب ... ... وبقيت لغة التعبد والديانة الإسلامية لمن دان من أهلها بالإسلام .

وارتباط (الخط العربى) بالدين الإسلامى جعل كثيرا من الأمم التى تدين بالإسلام تتخذ الخط العربى وحروف الهجاء العربية فى كتابتها .

كالمتحدثين باللغة الحبشية فى (هرر) من المسلمين فإنهم يكتبون الحبشية بالخط العربى (١) .

وقد ظهر تأثيرها فى كثير من لغات العالم .. فعلى سبيل المثال فاكهة (الموز) عرفها العرب فى الاندلس . فأطلقوا عليهـــا اسم (البنان) أى الاصبع . فأطلق عليها هذا الاسم فى كل اللغات الاوربية .

وقد أخذت بعض اللغات الشرقية من العربية كثيرا من الألفاظ ، بيد أنها لم تستطع النطق بالحروف العربية ، التى ليست فى لغتها فالفرس لم ينطقوا بهذه الحروف (ث ح ص ض ظ ع ق) .. والترك نطقوا من هذه (ق) لأنها بين (العين والضاد)

والحقيقة أن الفيصل فى قيمة اللغة العربية هو (تراثها) وماتحمله من حضارة وعلم ؛ فقد أقبلت الأمم قديما . على تعلم اللغة العربية ، لما حوت من علم وفن . فدرست العلوم والمعارف العربية . فى جامعات أوربا .. حقبا طويلة الأمر الذى حدا بالدول الكبرى . كبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتى لأن تبنى الجمعيات الآسيوية فى عواصمها ومدنها الكبرى . كالجمعية الآسيوية بلندن ١٧٢٣ م . . والجمعية الآسيوية بباريس ١٨٢٠ م ... وكذا معاهد

---

(١) ص ١١ اللغة العربية عبر القرون ... د محمود حجازى .

اللغات الشرقية وقد تناثرت على رقعة واسعة من الأرض فظهرت فى روما وصقلية ، ومدريد ، وموسكو ، وطشقند بالاتحادالسوفيتى، وتقيم المؤتمرات العلمية ... فيظهر عامل الاستشراق ... ويعترف كثير من المستشرقين بأثر اللغة العربية المباشر ، وغير المباشر فى ثقافة العالم ... يقول اسكندر فون هوميلد (إن العرب قد نشروا مع دينهم لغتهم المثقلة بتراث خالد من الشعر ... لم تبل جدته ، ولم تتزعزع أصوله)(١)

ويقول : ليبرى (صان العرب نهضة الادب فى أوربا مدة طويلة) وقد أخذت عنها (اللغة الالمانية) الإعراب ، وهو تغيير آخر الكلمة ، باختلاف العوامل الداخلة عليها (— الرفع — النصب — الجر — السكون)

وكما تأثرت الالمانية بالإعراب . تأثرت اللغة الحبشية أيضا والإعراب يساعد على تفهم المعنى ؛ والتمييز بين الاساليب .

وقد أثبت التاريخ فوق اللغة العربية ، وتقدمها . وتأثيرها فى الحضارة العالمية .

فقد كانت الاندلس . حاضرة أوربا ... يفد إليها أبناؤها ، لينهلوا من موارد علمها . ورحيق آدابها .

حتى بعد سقوطها فى أيدى الفرنجة ... فقد عاشت أوربا على زادها لما خلفت من تراث لا يبلى ، ولا يزال زادا لاسبانيا حتى الآن .

والدليل على ذلك ... ان السلطان (يعقوب المرينى)(٢) حاكم المغرب

---

(١) ص ٩٠ فصول مقارنة بين أدبى الشرق والغرب ... د . جمال الدين الرمادى .

(٢) تاريخ الجزائر ٧١/٢ والنبوغ المغربى ١٨٦/١

قد اشترط على ملك أسبانيا (شانسو الرابع) فى معاهدة الصلح التى عقدها معه أن يعيد إليه جميع المخطوطات العربية ؛ التى حازها أيام استيلائه على (قرطبة) و (اشبيلية) ... فبعث إليه (شانسو) ثلاثة عشر حملا من الكتب . وزعها السلطان يعقوب على خزائن المغرب ... ومع ذلك فقد بقى الكثير ... فلا زالت مكتبة (سكوريال) فى أسبانيا تعج بالمخطوطات العربية والمؤلفات فى شتى أنواع المعرفة .

فقد عثر فى وقت قريب ... المستشرق البرفسور (بال كاولى) (١) على مسرحيات عن أصل عربى (لمحمد بن دانيال الموصلى) فى عصر الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد ذكر المستشرقون (جورج جاكوب) محتويات هذه التمثيليات فى كتابه (تاريخ مسرح تمثيل الظل) ...

إن الثقافة العربية ... كانت واسعة العطاء فالمكتبة الحديثة فى التنظيم ، والتنسيق ، والتبويب ... والإشراف ، استولت على إعجاب المؤرخ (عبد الرحمن الجبرتى) حين رأى هذه المكتبة أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٨٩٧م — ١٢١٣ هـ وقد وصفها معجباً بها ... فقال : —

(فيها جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون ، يحفظونها ويحضرونها للطلبة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ، ويراجعون ، ويكتبون حتى أسافلهم من العسكر) (٢) .

إن ما أعجب به عبد الرحمن الجبرتى فى العصر الحديث ... وفى مطلع

---

(١) ص ١٠٥ ظاهره التأثير والتأثر فى الأدب العربى د . على العريبى

(٢) ص ٢٤ جـ٣ عجايب الآثار عبد الرحمن الجبرتى .

النهضة ... هو ما كان معمولا به فى المكتبة العربية القديمة (مكتبة القرويين) فقد جاء ما يثبت ذلك ...

(أنشأ السلطان أبو عنان — خزانة القرويين ، وأودعها الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الابدان ، والأديان ، واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم - على اختلاف وتنويع ضروبها وأجناسها ، ووقفها ابتغاء الزلفى ... ورجاء ثواب الله الاوفى وعين لها قيما لضبطها ، ومناولة ما فيها، وتوصيلها لمن له رغبة ، وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة ، تكرمة وعناية ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ(١) .

ولم تكن مشاركة المرأة فى الآداب والعلوم بدعاً فى الحياة ... وإنما هو جو من الجهالة ساد ثم زال ... ولم تكن يد النهضة الأوروبية على العرب بل يد العرب على النهضة الاوروبية ...

فقد شاركت فى العلم والادب كثير من النساء ذات الطول فى العلم والمعرفة فقد ضرب المثل ... بولادة بنت المستكفى فى الشعر والأدب ... فى الأندلس وبعد غروب الأندلس ، فقد تصدت للدرس العالمة الأديبة ... خديجة بنت سحنون ... التى كانت تدرس فى حلقة جامع القيروان ، وأبوها يدرس فى أخرى .

ومهدية بنت الحسن بن غليون. التى أتقنت العربية ، ونبغت فى القريض ومن شعرها فى الحنين إلى أخيها الذى ارتحل إلى الشرق ، وطالت غيبته .

ليت شعرى ما الذى عانيته بعد طول الصوم مع نفى الوسن(٢)
مع غروب النفس عن أوطانها والتخلى عن حبيب وسكن

(١) عجائب الآثار للجبرتى ٣/٢٤

(٢) ص ٤٤ النقد الأدبى فى المغرب العربى د. عبده عبد العزيز قلقيلة .

يا شقيقا ليس فى وجدى به　　علة تمنعنى من أن أجن
وكما تبلى وجوه فى الثرى　　فكذا يبلى عليهن الحزن

فلا غرابة إذا فتحت جامعة الأزهر، والجامعات الاسلامية فى الوطن العربى ... أبوابها للمرأة ... بعد أن ظلت موصدة، فترة من الزمن ... فأعادت المرأة مجدها العلمى والأدبى ...

إن اللغة العربية حملت السمات الحضارية للعالم... وذلك لغناها بمفرداتها وأساليبها ... وتفرعاتها ...

فمن غناها بالمفردات أنها جعلت لجزئيات النهار أسماء لا توجد فى أكثر اللغات الحية :

فالساعة الأولى ... ... الذرور
ثم ... ... البزوغ
ثم ... ... الضحى
ثم ... ... الغزالة
ثم ... ... الهاجرة
ثم ... ... الزوال
ثم ... ... العصر
ثم ... ... الأصيل
ثم ... ... الصبوب
ثم ... ... الحدود
ثم ... ... الغروب

ومن تصرفاتها للأفعال ...

كتفرع (الفعل — نظر) ... فيؤدى باللفظ ...

(رمق — ملح — حدج — توضح — رنا — استشف) وكلها بمعنى نظر وبرزت قدرتها فى (الايجاز — والاعجاز) ...

والتفوق فى (المترادفات والاضداد ...) ...

فضلا عن ذلك فلها ... حلاوة الإيقاع ...

... ... وجمال النغم بين الالفاظ

... ... ورصانة الجرس

نلمس ذلك فى واقعها المعاصر ... فليس يخاف على أحد ... أن الحماسة تعرف بالألفاظ الجلجلة ، المدوية ، التى تهب كالعاصفة ، ومن أراد المزيد... فعليه بالاطلاع على ألوان الموسيقى التى تحملها القصيدة العربية ... عند لقاء العدو ... فى الأدب العربى القديم والحديث كما أن الغزل يعرف بالموسيقى ذات التنغيم الهامس ... ويتمثل ذلك جيدا فى أدبنا المعاصر . الذى يحمل طابع الغزل العفيف .

لذا سار العالم على ضوئها عدة قرون ، لما حملت من فن ، وأدب ، ومعارف متعددة ...

كانت ولا تزال زاداً للإنسان فى أى مكان ... فقد غذى أدبنا العربى الآداب العالمية ... من إنسانيته ...

فقد احترم العرب (الإنسانية) وكرموها فى شخص الإنسان ، فعرفوا له حقوقه ...

هذه الحقوق التى جاءت بها الشريعة الإسلامية ، التى عرفت بالمحبة والمساواة ... وحماية الفرد ، من الجور ، والعسف ، والاستذلال وقد تمكنت هذه المثل ... من نفوس العرب ... فعاشوا بها ولها وطبقوها فى إخلاص منذ فجر التاريخ .

فرأينا أبناء الديانات الأخرى ، يسهمون فى بناء الحضارة العربية إسهام العرب أنفسهم .

فقد حمل الأدب هذه الرسالة، عبرالقصور ، تحدوه الآية الكريمة (ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا(١)) .

والآية الكريمة :

(وجعلناكم شعوبا ، وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير(٢)) .

فروح الأمة ثاوية فى لسانها .

وفى أساليب تعبيرها ، وتصويرها .

وماسجلته من أقوال ، وآثار أدبية فى الشعر ، والنثر ، والحكم ، والعظات وماجاء به القرآن الكريم ... هو أعلى ذروة البيان العربى ... حيث الإعجاز الذى لا يبارى .

ولهذا كان من اليسير على من يبحث ذلك فى اللغة العربية ، وآدابها أن يدرك كثيرا من مظاهر الارتباط بين المنازع الإنسانية لحضارة العرب ، ومنازع لغتهم فى التصوير ... والتعبير ...

ومن هذا المنطلق قرر (المستشرق ماسينون) .

(بأن البعث الدولى للغة العربية ، عامل أساسى فى إشاعة السلام بين الأمم) ...

---

(١) الآية ٧٠ سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٣ سورة الحجرات .

وفى الأخذ برأى هذا المستشرق قضاء على الحروب والدمار ، وعلى الجوع الذى يفتك الآن بأطفال الدول النامية فى العالم الثالث ... وعلى البطالة التى أخذت تزحف نحو بعض دول أوربا ...

إنها اللغة العربية ... لغة الحضارة ... التى تنشد خير الإنسان فى كل مكان والأدب العربى ... ذو السمات الحضارية ...

فحق لحافظ أن يقول :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

وحق لقسطاكى الحمصى أن يقول :

حروفها لمعان لا تطاولها فى حسنها بنت يونان ورومان

بقلم
د . على أحمد العريفى

أبو عبيدة معمر بن المثنى
وكتابه : مجاز القرآن

د. صلاح محمود على شحاته

أبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى عام ٢١٣ هـ أو ٢٠٩ هـ أو ٢٠٨ هـ على الخلاف فى سنة وفاته ... هو من العلماء الذين وجهوا عنايتهم ، وركزوا جهادهم واهتمامهم بالأسلوب القرآنى ، وبالمعانى والنظم ، وصلة النظم بالمعنى واللفظ وقد استرعت اهتمامه فنون (التعبير القرآنى)(١) .

وقد ألف « أبو عبيدة » كتابه الشهير : « مجاز القرآن » بعد أن سئل فى مجلس « الفضل بن الربيع » سنه ١٨٨ هـ عن حكمة التشبيه بما لم يعرف مثله فى قوله تعالى فى سورة الصافات الآية ٦٥ (طلعها كأنه رءوس الشياطين) بصدد الحديث عن شجرة الزقوم ...

وقد أجاب أبو عبيدة عن هذا السؤال : بأن الله كلم العرب على قدر مايتكلمون به ، وضرب لذلك مثلا بقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

---

(١) ينظر فى ترجمته : «معجم الأدباء» لياقوت الحموى ج١٩ ص١٥٤ أخبار النحويين البصريين ص ٦٧ ، « تاريخ بغداد » ص٢٥٢ ج١٣

ب لم يروا الغول قط، ولكن لما كان أمر الغول يفزعهم ويروعهم خوفوا به وأوعدوا »، فاستحسن السائل هذه الاجابة وهو — على ما قيل « إبراهيم بن إسماعيل الكاتب »، فطلب « الفضل بين الربيع » إلى « أبى عبيدة » أن يجمع فى هـذا وأمثاله كتاباً مما يحتاج إليه الناس »، فلما عاد « أبو عبيدة » إلى البصرة قام يتتبع القرآن الكريم : آية آية وسورة سورة، شارحاً غريبة وموضحاً أساليبه المجازية، ذاكراً من الشعر العربى الفصيح الرصين ما يؤيد المعنى الذى فصله على غيره، فكان من ذلك كتابه « مجاز القرآن » .. ، وظاهر عنوان هذا الكتاب يوهم أنه صنفه فى المجاز « بالمعنى الاصطلاحى البلاغى، ولكن النظرة الفاحصة فى هذا الكتاب توقفنا على حقيقة الأمر وهى أن كلمة « مجاز » فيه يقصد بها المؤلف : الدلالة الدقيقة لصيغ الأساليب القرآنية المختلفة .

ولقد تنبه إلى ذلك « ابن تيمية » فتراه يقول فى كتابه « الإيمان » .

أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز : أبو عبيدة معمر بن المثنى، والمراد بمجاز الآية عنده هو ما يعبر به عن الآية (١) .

ويمكننا أن نقول : إن أبا عبيدة، قد عنى بمجاز الآيات : تفسيرها وتأويلها، ويتضح لنا ذلك منذ السطور الأولى فى كتابه هذا فقد جاء فى مقدمته ما نصه : (... قال الله — عز وجل ثناؤه — : « إن علينا جمعه وقرآنه »، مجازه : تأليف بعضه إلى بعض، ثم قال : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه »، مجازه فإذا ألفنا منه شيئاً فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك ...

ونلاحظ فى كتاب : « مجاز القرآن » أن مؤلفه قد اختار الآيات التى تمثل صوراً مختلفة فى الدلالة والصياغة متمثلا بما يشبهها من أشعار العرب، وقد

---

(١) ينظر كتاب « الايمان » لابن تيمية، ص ٣٥ ...

أداه هذا الاختيار إلى أن يتحدث عما فى الآيات من استعارات وتشبيهات وكنايات ، وتقديم وتأخير وحذف وتكرار وإضمار ، وكذلك توسع المؤلف فى تصوير الخصائص التعبيرية للأساليب القرآنية ويتجلى ذلك فى حديثه عن : الدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم والعكس وفى حديثه عن مخاطبة الواحد مخاطبة الاثنين(١) ...

وقد تنبه صاحب « مجاز القرآن » إلى الصورة العامة لأسلوب « الالتفات » — وإن لم يسمه باسمه الاصطلاحى — فتراه يقول : « ... ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت إلى مخاطبة الغائب : قال تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » أى : بكم(٢) .

فأبو عبيدة فى كتابه هذا يريد أن يبين لنا طرق أداء المعنى القرآنى ويقارنها بما هو موجود فى كلام العرب حتى يستبين للقارىء فضل نظم القرآن الكريم وأسلوبه واحتوائه على الصور البيانية ...

ولننظر إلى شرحه لقوله تعالى : « وأشربوا فى قلوبهم العجل » يقول : سقوه حتى غلب عليهم ، مجازه مجاز المختصر . اشربوا فى قلوبهم العجل : حب العجل(٣) .

وتفسيره لقوله تعالى : « فليستجيبوا لى » يقول: أى : يجيبونى ثم يدعم كلامه بقول كعب الغنوى :

وداع دعا : يامن يجيب إلى الندى   فلم يجبه عند ذاك مجيب

---

(١) « البلاغة تطور وتاريخ » د. شوقى ضيف / ٣٠

(٢) ينظر « مجاز القرآن » ١١ / ١ تحقيق فؤاد سزكين . ط. الخانجى .

(٣) « مجاز القرآن » ٤٧ / ١ .

يقول أبو عبيدة فى شرحه لهذا البيت : أى فلم يجبه عند ذلك مجيب(١) .

ثم نرى أبا عبيدة ينتقل بعد أن يشرح الجانب الغريب — إلى الجانب الواضح الذى يحدد معنى الصورة البيانية فيرى فى قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم » . « مجاز تمثيل » ، لأن ما بناه على التقوى أثبت أسساً من البناء (الذى بنوه على الكفر والنفاق وهو على شفا جرف ، وهو ما يجرف من سيول الأودية ، فلا يثبت البناء عليه(٢) .

وأحب هنا أن أوضح أن كلمة « مجاز » وردت فى القرنين الثانى والثالث بالمعانى الآتية :

أولا : جاءت بمعنى التفسير أو التأويل ، ومن ذلك قول أبى فى قوله تعالى : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » .

مجازه : إذا قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله .

وقال فى قوله تعالى : « لا فيها غول » .

مجازه : ليس فيها غول ، ومنه قول « المبرد » : الطافم ـ عند العرب ـ : « من لا عقل له ولا معرفة(٣) » .

ثانياً : أنها جاءت مقابلة لمعنى كلمة « حقيقة » ، فتكون بمعنى التى استعملت فى غير ما وضعت له فى أصل اللغة ، وقد ورد ذلك فى كتاب « الحيوان » للجاحظ حينما أورد شواهد كثيرة من مادة « أكل » ،

---

(١) « مجاز القرآن » ١ / ٦٧ .

(٢) « مجاز القرآن » ٢ / ٢٦٩ .

(٣) انظر « الإعجاز البيانى للقرآن » د . حفنى شرف ص ١٧ ، و « الكامل » للمبرد ص ١ — ١٤ .

كقوله تعالى : « إنما يأكلون فى بطونهم ناراً » ، وقوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » فإنه يقول : « وهذا كله مجاز(١) » .

ثالثاً : وردت كلمة مجاز فى هذين القرنين — الثانى والثالث — بمعنى الأسلوب وطريق الأداء ، ولذلك نرى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ يقول : « ... وللعرب المجازات ومعناها طرق القول ومآخذه . فمنها : الاستعارة ، والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريف والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع ومخاطبة الجمع مخاطبة الواحد والواحد مخاطبة الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص(٢) » .

مما تقدم نستطيع أن نخلص إلى أن « أبا عبيدة » كان يقصد من كلمة « مجاز » أن يبين صوراً من التعبير القرآنى ، ثم يجرى هذه الكلمة على مجموعة من المعانى اصطلح علماء البلاغة — فيما بعد — على تسميتها خاصة ، وقد نشأت هذه المصطلحات البلاغية فى ظلال الدراسات القرآنية التى يعد كتاب « مجاز القرآن » أساساً لها ...

وعلى أية حال : فإن كتاب « مجاز القرآن » لفتة صادقة من « أبى عبيدة » يعرفها له تاريخ البلاغة بإجلال وإكبار وتقدير(٣) ...

وهذا الكتاب يعد مرحلة أولية من مراحل الكشف عن الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم ، ومن مراحل تطور النقد والدراسات البيانية

---

(١) « الحيوان » للجاحظ ٥/١٠ .

(٢) انظر كتاب « القرطين » لابن قتيبة ٢/١٦٢ .

(٣) انظر (الإعجاز البيانى للقرآن) ، د. حفنى شرف ص ١٩ ، « البلاغة تطور وتاريخ » د. شوقى ضيف ص ٣٠ .

لأسلوب القرآن ، وفي تطور الأدب العربي عامة ، كما أنه يعد — بحق — مرجعاً لكثير من الدراسات الأدبية واللغوية التي تلت(١) .

وأبو عبيدة في كتابه . « مجاز القرآن » رجل واسع الاطلاع ، جم المعرفة ، فكتابه يشمل علم العربية . إذ ضم أفانين مختلفة مما يدور حول مسائل النحو واللغة والبلاغة متجاورة غير مفترقة(٢) ...

ومن الظلم لأبي عبيدة إذن أن نقصر اتجاهه على رواية الأخبار والتاريخ . وحسبنا أن يقول الجاحظ عن أبي عبيدة : (لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة(٣) .

ولم يكن « الجاحظ » ممن يسوقون الثناء سوقاً دون تحديد ، ولكنه — كما نعلم — صاحب ميزان دقيق يزن به الأساتذة الزملاء من معاصريه ، فكلمته السابقة في أبي عبيدة لها وزنها وثقلها لدى من يعرفون علم أبي عبيدة ورأي الجاحظ فيه — كما يذهب الدكتور /رجب البيومي(٤) ...

وفوق ذلك فلقد قيل عن أبي عبيدة : (إنه كان لا يفتش عن علم من العلوم إلا كان من يفتشه عنه يظن أنه لا يحسن غيره ، ولا يقوم بشيء أجود من قيامه به) (٥) .

---

(١) « أثر القرآن في تطور النقد » د. زغلول سلام ٤٠ ...

(٢) « بلاغة القرآن بين التاريخ والفن » د. فتحي عامر ١٦ .

(٣) « البيان والتبيين » ٢٣١/١ . ط . السندوبي ...

(٤) ينظر كتاب الدكتور رجب البيومي « خطوات التفسير البياني للقرآن » ٥٠ .

(٥) انظر « معجم الأدباء » لياقوت الحموي ١٥٥/١٩ .

هذا ... واشتمال كتاب : « مجاز القرآن » على بعض الألوان البلاغية محددة بأسمائها مع سبق زمنه التأليفى عن كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ فيه دليل على أن البلاغة العربية فى طور نشأتها كانت عربية خالصة ...

وكتاب « مجاز القرآن » قد رتب وفق ترتيب السور القرآنية فى المصحف الشريف مما يسهل معه أن يرجع أى دارس إلى ما ذكر « أبو عبيدة » فى توجيه الآيات القرآنية . من مثل قوله تعالى فى سورة البقرة آية ٢٢٣ : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) حيث يقول فيه : « إنها كناية وتشبيه(١) » ...

ويلاحظ أن « أبا عبيدة » فى كتابه « مجاز القرآن » قد توسع فى كلامه عن « الكناية » وفى إطلاقها توسعاً حدده البلاغيون - فيما بعد - ولكنه سبق إليه ونص عليه ...

وإذا بحثنا عن « الاستعارة » فى كتاب « مجاز القرآن » فإننا لا نجدها بلفظها — وإن كان أبو عبيدة قد ألم بها فى كتاب آخر له هو كتاب « النقائض بين جرير والفرزدق » حيث قال تعليقا على قول الفرزدق : « عوذ النساء » : (هن اللائى معهن أولادهن ، والأصل فى عوذ — فى الإبل — هو : الإبل التى معها أولادها فنقلته العرب إلى النساء ، وقد تفعل العرب ذلك كثيرا(٢)) .

فأبو عبيدة بكتابه « مجاز القرآن » — إذن — هو من أوائل من أسهموا فى « التقنين البلاغى » — وعلى فرض نقله من شيوخه من أمثال « عمرو بن العلاء » فحسبه أنه كان أول من دون هذه الملاحظات والمصطلحات

---

(١) « مجاز القرآن » ١/٧٣ .

(٢) انظر « النقائض » ١/٢٦٢ .

فى كتاب يتناقله الناس ، فقدم بذلك الوثيقة الصادقة التى تحفظ لهذه المصطلحات وجهها العربى الخالص — دون غشاء —

وأبو عبيدة فى « مجاز القرآن » عند ما فرغ من الكلام على كلمة « قرآن » ، داف إلى نص القرآن وما يتضمنه من فنون البيان منبهاً إلى أنه يشابه فى نظمه كلام العرب ، ولقد حرص على أن يؤكد دائماً صحة أسلوب القرآن وصحة فنون التعبير فيه بأساليب العرب وفنونهم فيذكر دائماً فى كلامه حينما يختتمه : (أن العرب تفعل هذا) ...

ومن كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة ندرك أن تحليله لبعض الآيات القرآنية كان خطوة تالية فى التحليل البلاغى الأدبى للأسلوب القرآنى ، ذلك أن من سبقوه كانوا يعتمدون فى تناولهم للنص القرآنى على الحس البيانى الفطرى فى فهم هذا النص ، وذلك قبل أن تخطو اللغة العربية خطوة فى تأليف العلوم ، وتدوين المعارف ، أما أبو عبيدة فقد احتكم إلى لغة العرب فى فهم النص والاستئناس بالشاهد ، ثم انتفع — مع ذلك — بما تمخضت عنه الحركة الثقافية من بحوث علمية مثمرة فقدم كتابه « مجاز القرآن » حافلا باللغة والأدب والبلاغة ...

وبعد : فهذه أضواء على أبى عبيدة وكتابه « مجاز القرآن » وما حواه من فنون البلاغة والبيان .. ؟

صلاح محمود على شحاته

تهنئة للأخ الكريم الأستاذ الدكتور :

محمد الطيب النجار

بتجديد مدة الرياسة لجامعة الأزهر

بطيب نداك ينتشر الأريج ... وينفح بالمنى يوم بهيج
وتسطع فى الوجود بدور بشر ... ينضر حسنها فلق سبيج(١)
وتعلو شمس فضلك فى البرايا ... ويبدو من أشعتها أجيج(٢)
ويخفق بندك الميمون حرآ ... على أفق الحياة له دجيج(٣)

• • •

محمد يا ابن من طابت قديما ... جذوم نجاره ولها وهيج(٤)
ويا ابن « الطيب النجار » مجدا ... وعلما ... ذلك الرجل المليج(٥)
توليت الرياسة من قريب ... لجامعة لها صوت ضريج(٦)
فصنت جلالها عاما كريماً ... وزنت جمالها وهو الوثيج(٧)
وكنت تسيح وحدك فى ذراها ... وكان حديثها : نعم النسيج

---

(١) السبيج : العريض .
(٢) الأجيج : التأجج والتلهب .
(٣) الدجيج : السير الوئيد .
(٤) الوهيج : التوقد والاشتعال .
(٥) المليج : الشيخ الجليل .
(٦) الضريج : الشديد .
(٧) الوثيج : الكثيف المكتنز .

فسارت نحوك الآمال نشوى ... مسير الريح يدفعها النشيج(١)
ترجى أن تظل لها رئيساً ... حياتك والزمان له ضجيج
وتصفيك القلوب سلاف ود ... تدفق مثلما دفق الثجيج(٢)

. . .

وكان الناس فى حيض وبيض ... يحرك فكرهم أمر مريج(٣)
ويحبس صوتهم خوف وذعر ... ويغلبهم على الألم النشيج(٤)
إلى أن آذن المولى بفضل ... فطوف حول دارتك الحجيج(٥)
يرفون التهانى صادقات ... وتحقيق المنى أبداً يهيج
ويزجون الدعاء هوى وعشقاً ... لشخصك والغرام له هجيج(٦)

. . .

محمد .. والإخاء له حقوق ... وبين أضالعى حب وثيج(٧)
وآخر دعوتى لك كل صبح ... ومسى ، أن تواكبك المروج
وأن ترقى المعارج شامخات ... إلى الجوزاء فى فلك يموج

دكتور
عبد السلام أبو النجا سرحان

---

(١) النشيج : مرور الريح بسرعة مع صوت .
(٢) مريج : مختلط مضطرب (٤) النشيج : الغصة من البكاء .
(٥) الدارة : الدار . (٦) الهجيج : التوقد والاشتعال .
(٧) الوثيج : المتكثف المكتنز .

رقم الإيداع بدار الكتب ٦١٣٧ / ١٩٨٢

مطبعة الأمانة ٣ جزيرة بدران – القاهرة

الفهرس